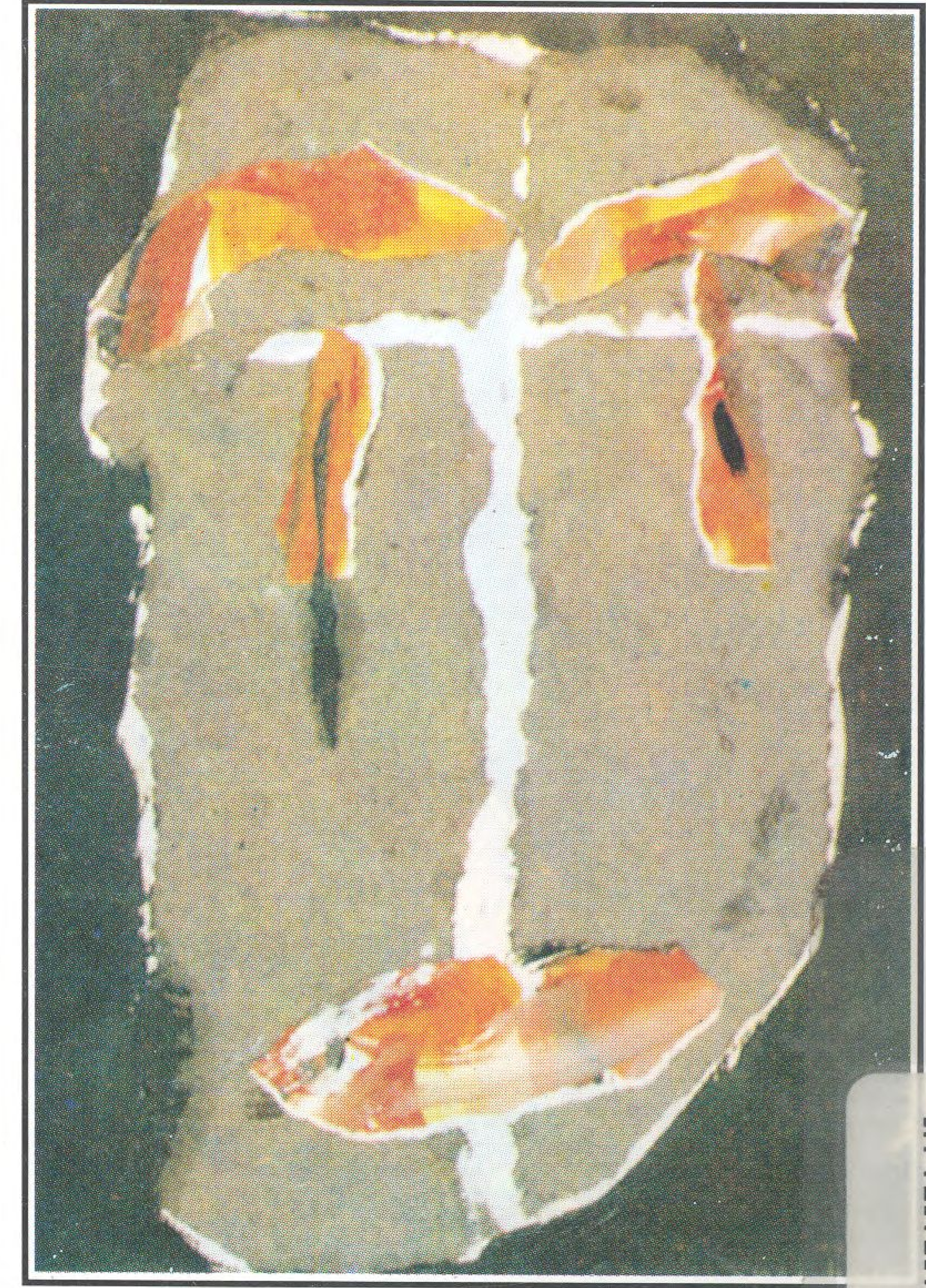




سعيد بكر



شهـــقة

قصص قصيرة

سعيد بكر

لوحة الغــلاف : للفنانة سارة قيام

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/٢٥٢٣

الترقيم الدولى : I .S .B .N 977-291-068-3



السلسلة الأدبية

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام

على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

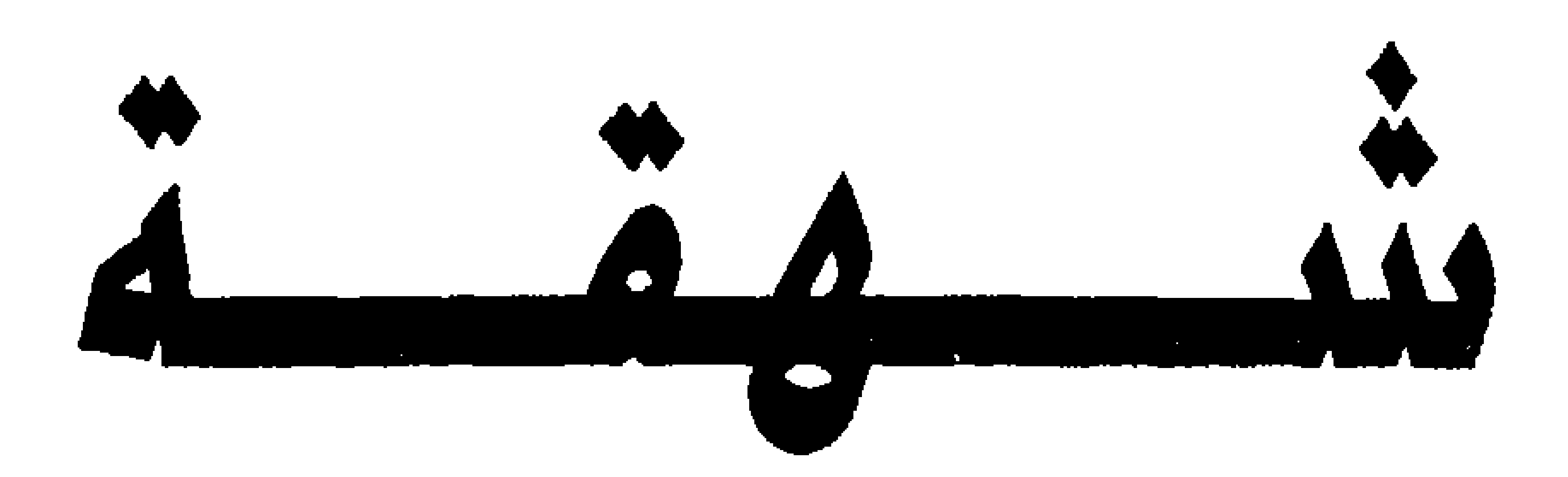
تنفيذ :عبير كمال خضر

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

سعيد بكر



قصص قصيرة




شهقة

يتكاثف الظلام .. تخبو الأصوات وتنسحب من حولي مخلفة سكونا يعبث بعروقي المشدودة .. تنداح من وراء البيوت دفقات من هواء ليلي رطب يتمسح بصفحة وجهي المكشوفة . انكمش حول نفسي وأتداخل في جوف قميصي أتقي طل الليل المتساقط. يندى الأسفلت المنبسط تحت قدمي الملتصقتين بشبشب بلاستيكي ، تنعكس على سطحه أضواء كليلة يبثها المصباح المعلق فوق رأسي والمغروز في الحائط الملحي الذي أستند عليه .. أذناي ترهفان السمع عسى أن تلتقطا وقع حذاء أخي على أسفلت الحارة .. أنتظر قدومه لأحذره من ثورة أبي المرتقبة .. لا يأتيني سوى حفيف الهواء المحتك بالنوافذ التي أوشكت على الاختفاء الواحدة اثر الأخرى.. بدأت البرودة تسري في أوصالي فأندس في ملح الحائط .. أتدثر ببعضي مستولدا لحظات دفء .. تخشبت ساقاي والتصق لحمهما .. أبصرت أنفاسي تتكثف دخانا أبيض .. استمرأت صورة الدخان .. رحت أكتم أنفاسي ثم اطلق سراحها فتخرج دفعه واحدة خيوطا تتلوى ثم لاتلبث أن تذوب وتختفي .. انتشلني صوت أمي القادم من أغوار الحارة من مخالب الطل المتنامي .. هرولت باتجاه بيتنا .. عند عتبته لمحتها متوترة الملامح .. بادرتني :

- أدخل كي لا يقتلك طل الليل ..

تساءلت وأنا أتابعها إلى داخل الردهة الطويلة :

- أما زال ينتظره .

لم تجبني ولكنها عند عتبة حجرتنا غمغمت :

- ربنا يفوت هذه الليلة على خير ..

على حافة الكنبة المتصدرة حجرتنا وفى مواجهة بابها يجلس فى جلبابه الأبيض الذى صنعته أمى مما تبقى من جلباب أخى .. ساقه الموضوعة فوق الأخرى تهتز هزات تشى بفاجعة على وشك الانفجار .. يدخن سيجارته بغضب . تدخل وجنتاه إلى تجويف فمه وهو يسحب دخان السيجارة فيبدو وجهه مومياثى الملامح .. تتخشب عضلاته .. يكتم الدخان المتسلل إلى تجاويف أحشائه .. يصدر صوتا وهو يطلق الدخان المحبوس، سحابة متدافعة تحمل رائحة العطن، مخلوطة بروائح حجرتنا عديمة التهوية .. لا مصدر إلا نافذة عالية مغلقة الضلفتين دائما .. لا يدخل منها إلا روائح احتراق قمامة الحارة المتجمعة فى الخرابة الكائنة خلف حجرتنا .. وأصوات أشخاص مجهولى الهوية يتخانقون وقد يتضاربون فيعلو صراخهم ليخترق النافذة المسيجة وترقد أصواتهم المتداخلة الأحرف على حوائط حجرتنا وتنام فى دفء فراشنا الوهمى...

إلى الطبلية التى أعدتها أمى جلست فى صمت .. تحاشيت النظر إلى عينى أبى .. رأيت أمى وهي تغادر الحجرة إلى الردهة الطويلة حيث يقبع دولاب الخزين .. أحضرت عدة أرغفة وطبقا بداخله سائل لزج من العسل الأسود .. عشائى المفضل .. فوق سطحه دائرة الطحينة البيضاء .. انسحبت أمى وأنا أدرك حرصها أن لا يخرج منها صوت يستثيَر البركان الكامن فى أعماق أبى .. وتهمهم بشفتين بكماوين :

- فلتأكل .. قد يتأخر ..

أزت الكنبة وهو يستدير فى حركة مفاجئة .. لم تعره أمى اهتماما .. يتحرش بها منذ أيام ، يظن أنها وراء نكران أخى لوجوده ...

غمست لقمتي بأناة في جوف الطبق.. تشاغلت بصنع عدة دوائر لتقليب الطحينة البيضاء بالعسل الأسود .. تستهوينى درجات الألوان البنية وهى تتشكل مع دوائرى .. حين قذفت باللقمة مغموسة فى فمى كان للعسل المخلوط بالطحينة البيضاء طعم دخان سيجارته ورائحة العطن الراكدة فى هواء حجرتنا .. ورائحة دخان حرائق القمامة المشتعلة خلف نافذتنا ..

عاق يدى المسمار النابت فى خشب الطبلية التى صنعها أخى بدلا من تلك المتداعية التى حطمتها أمى وخزنتها فوق حجرة الشيخ جوهر الضرير ساكن دهليز البيت ، لمحت أمى حركتى فقالت:

- قد يجرح يدك يوما ..

طوح أبى بعقب سيجارته وسحقه بقدمه .. أحسست بجسدى يسحقه ضاغطا اياه فى بلاط حجرتنا العارى إلا من سجادة مهترئة الحواف خيوطها تروح وتجئ مع أقدامنا . قد تشتبك فى أصابع أمى فتثور وتسب أشياء مجهولة ..

لم أعرف أبى إلا عاطلا .. تتلاقفه مقاهى حارتنا . يتصدر دائما جلساتها .. المفوه فى أفراحها وأتراحها .. والمقدام فى ملماتها .. منذ استقرار أخى فى عمله الأخير يصرخ فى أمى سابا آباءها وجدودها.. يستحلب يوما بعد الآخر أخى المستسلم دوما .. ويروح يتسكع بما يحصل عليه من مال فى طرقات الحارة وخباياها ...

دوائر الطحينة تبدو كعروق صخرية .. وعروق رقبة أبى الجافة جذوع لا تثمر .. أمى تنتظر أخى الذى لم يحضر بعد ... وتغمغم شاخصة بصرها نحو أبى ..

- ربنا يفوت هذه الليلة على خير

ما كادت تنتهى حتى تناهى الينا وقع أقدامه فى الدهليز .. تحفز أبى واعتدل فى جلسته متوفزا .. أخرج علبة سجائره من جيب الجلباب العلوى ..انتزع واحدة وهو يتابع أمى التى هرولت نحو الباب . أشعل سيجارته . عاد يسحب وجنتيه إلى داخل تجويف فمه فتتجسد ملامحه الموميائية .. لم يفهم أخى الاشارات الهامسة التى لوحت بها أمى لتحذره .. دخل ككل مساء يبتسم .. خلع ثيابه وعلقها فى المشجب المثبت خلف باب حجرتنا .. ارتدى جلبابه .. همس :

- أنى جائع ..

أولى أبى ظهره وجلس فى الجهة الأخرى من الطبلية وجعل يغمس لقيماته فى العسل الأسود المخلوط بالطحينة البيضاء .. أبى يزفر دخان سيجارته بصوت مسموع .. تحاشى أخى وجوده وقال لأمى التى تقرفصت عند باب الحجرة :

- أرى أن استيقظ مبكرا ..

منذطلب أخى من أمى أن تبحث له عن بنت الحلال وأبى تعلو وجهه غبرة .. يطرد من صدره أنفاسه المحشرجة . يصفق الباب فى غدوه ورواحه .. ويدمدم ساخطا:

- ابن الكلب يدخر من وراء ظهرى..

تعمد أن يلقى بأعقاب سجائرة حيثما اتفق حتى تهب أمى فى وجهه صارخة فيفتح طاقة لبركانه الهائج .. يقذفها بما تطوله يداه ويهجم على الدولاب ينزع ضلفاته الواهية مهددا بأنه سيحرق البيت بمن فيه ..

فى لحظة غير متوقعة أنقض أبى المتحفز على عنق أخى الذى باغتته اليدان القابضتان على عروق رقبته النافرة فانتر واقفا محاولا نزع اليدين المتيبستين .. اختل توازنه فأطاحت ركله طائشة من قدمه بالطبلية التى انقلبت .. فزعت متراجعا إلى الخلف محتميا بأمى التى ألجمتها المفأجاة .. وكتمت شهقة..ارتطم الطبق بالبلاط العارى فأصدر رنينا تردد صداه فى فراغ حجرتنا..وبحركة مباغتة استدار أخى مخفيا رأسه فى صدر أبى بينما أطل رأس أبى من فوق كتفه محتقن الوجه ومتألما..أسرعت أمى لتحول بينهما فامتدت يد لتدفعها فى صدرها بعيدا فصرخت بمجامع قلبها :

- حسبكما هذا ..

بدا الاثنان كتلة واحدة .. تتقدم وتتراجع .. تتمايل يمينا ويسارا .. تبرز يد متخشبه الأصابع ثم لا تلبث أن تختفى داخل كتلة البياض المنبعجة الحدود .. اختفى رأساهما معا .. لا أدرى أين رأس أخى .. هل هو محشور الآن فى صدر أبى ..وأين تراه رأس أبى هل هو عند أقدام أخى عادت أمى تصرخ ..

- حسبكما هذا ..

واصلت الكتلة البيضاء تموجها.. ترتطم بالدولاب المتداعى.. ترتد

إلى المنتصف . تصدر عنها همهمات متداخلة وغير مفهومة .. هل هى أنين .. سمرت أمى الحيرة فوضعت يدها على فمها المفتوح .. تملص راس أخى واستخلص ثغرة . . لاهث الانفاس . يطل بعينين تحذران أمى من الاقتراب .. جزعت حين لمحت رأس أخى مقلوبا فى لحظة .. فى الأعلى قدمان عاريتان يتأرجحان .. ومن الجانب البعيد تتشنج يدان تلوحان بلا معنى .. أتطلبان المساعدة أم تستجمعان عنفوانهما لتواصلا شهوة الصراع المحتدم .. كانت أمى تستديرحولهما خاطفة كل شئ يمكن أن يستخدمه أحدهما ضد الآخر .. رفعت الواربور عن موضعه خلف الباب .. انتشلت السكين التى يعرف كل منهما مكانها من الدولاب .. وتردد فى لوعة :

- حسبكما هذا ..

خلت لوهلة وهما يتأرجحان يمينا ويسارا وسط الحجرة أنهما يرقصان رقصة ذات ايقاع واحد .. يتعانقان عناق محبين .. يتشابكان بالأذرع والسيقان ..

توهمنا معا أن صيحة استغاثة ندت عنهما . نظرت أمى إلى وعيناها مليئتان بالدموع .. حشتنى أن أذهب إلى الشاويش عبد الحافظ الذى تبدأ نوباتجيته بعد منتصف الليل..الشاويش عبد الحافظ رجل غليظ القسمات ، يسترضيه أبى محاولا مصادقته .. يقوم على خدمته فى دهليز البيت . يكرس له الدخان وينفخ فى جمرات الشيشة المتوهجة .. لا أنسى ذلك اليوم الذى جاء فيه ليفض اشتباكهما فاذا به يخلع قايش سرواله وينهال ضربا على ظهر أخى الذى فر مذعورا ومتخبطاً فى جدران الحارة .. حين هممت بالخروج صاحت أمى خلفى فى هلع :

- لا تفعل ..

لكن طرقات مستميته تنتفض على باب حجرتنا .. هرعت إلى باب أرفع عنه قبده .. اندفع الشيخ جوهر تسبقه عصاه .. بادرني وهو يشد على منكبي :

- هل فعلاها مرة أخرى ..

يعرف طريقه تماما .. صوب بابنا اتجه صائحا :

- كفا عن هذا ..

لم يتريث .. وجه عصاه نحوهما .. انغرز العصا في لحمهما .. شقت طريقها بسهولة .. اكتشف غوصها . حاول جذبها من جديد .. لم تطاوعه .. تعلق بها . وضع قدمه على جانب الكتلة البيضاء مستندا ومستعينا بدفعاتها ليخلص عصاه .. استحال عليه ذلك .. انخرط برمته حاشرا جسده الضئيل بينهما عله يتمكن من استخلاص عصاه .. رأيت جسد الشيخ جوهر وهو يغوص رويدا رويداً . توارت يداه .. اندس وجهه ثم اختفى تماما كأن جبا قد ابتلعه . ذاب كفص ملح .. لكن صوته ما زال يتردد عاليا .. لطمت أمي خديها وأقعت على أرض الحجرة تندب حظها .. روعتني بقع الدم التى انبثقت متناثرة تلطخ بياض جلبابيهما .. لم تلبث أن تقاطرت نقاط الدم فوق البلاط العاري..

لم أدر أهي دماء أخي أم أبي .. أم دماء الشيخ جوهر ضرير حارتنا وساكن بيتنا .. انطلقت إلى الخارج أصرخ في ظلام الحارة الذى تكاثف .. تكاثف .. تكاثف ..

شمس غائبة

يشــده البحــر .. يجذبه بخيوط ســحــرية .. يتشــهى أن يغمس قــدميه العاريتين في تلك المــوجات المتكسرة .. يتداخل بعضــها فى ثنايا البعض .. يتلاشى تدافعها فتنطوى مــتداخلة فى تلاطم يترك زبدا يتفجر ويذوب .. يشعــر بتسحب المــويجات فوق ســاقيه .. تدغدغ سطــح جلدهما الناعم ، تعلق بهمــا حبيبــات الزبد .. ينفثأ غضــبها الواحدة تلو الأخــرى .. لصوت انفــجارها طقطقــة حبــات الذرة فــوق الجمــرات .. يود أن ينطلق بامتــداد الرمــال التى لا نهاية لهــا .. يسحق بقــايا الأصداف التى قــذف بها الــموج فتناثرت تبــرق كعينى أبيه حين يــعتليه الغضب .. وصوته الــصدفى يحذره من الابتعاد عــن العجوز وألا تغفل عينــاه عنه .. والعجوز محــشور بجوف كــرسى خوصى القــاعــدة ساكن لا يريــم ، يــستند كــتفه الأيمن على ســار خشبى مغروز فى عمق الرمال. عيناه الباهتــان واللتان غشتهما غلالة رقيقة من سحائب السنين الفائتة ، تدور فى محجــريهما تتابعان خطواته المنفلتة .. تبرز من طرفى بنطلونه المشمــرتين ساقان نحيفتان تساقط عنــهما الشعر فبــدا جلدهما المغــضن رقيقا يشــى بعروقه الزرقاء النــافرة..قدمه اليسرى لاتكاد تصل إلى سطح الــرمال.. تهــتز هــزات بندولية مــتــسارعــة..ويده اليمنى تكبت هزات أخرى ترتجف لهــا ركبته المضغــوطة تحت أصابعه.. يسراه مدلاة تتجاوز حافة القاعدة الخوصــية..يبدو لعينى الصغير كالشجرة الــمنحنية فى مدرسته، فروعها تختفى خلف السور العالى..يشق الفضاء من حولهــمــا صوت نوارس بعــيدة..يرفع الصغــير عينــيه..يمسح الســماء التى تحــولت إلى قطع مندوفــة من ســحائب رمــادية..لم ير ظلا لنورس واحــد

يعبر صفحتها .. ترى من أى مكان تأتى هذه الأصوات المتداخلة . فحيحها مثل فحيح الهواء داخل المحارة الكبيرة التى يطفئ فيها أبوه أعقاب سجائرة ..اندفع نحو العجوز هاتفا بصوته المخلوط برائحة الأعشاب البحرية :

- هل تشعر بالبرد ..

امتدت يده الضئيلة لتمسح خط الريم الأبيض المنساب من زاوية فم العجوز :

- الشمس لم تظهر بعد..

فغر العجوز فاه فانسابت دفقات من الرغاوى البيضاء، لم يعبأبها الصغير ، فبدت ملامح ابتسامة مقهورة ترتعش لها شفتاه ، وعيناه ترافقان الصغير الذى راح يركل الموج المندفع نحوه فيتطاير رذاذ الماء .. يحمله الهواء ليسقط على وجهه وعنقه .. يجفل قليلا وتسكن يده المدلاة عن الحركة تماما ..

يجيئه صوت الصغير الضاحك :

- هل تحب الصيد ..

التقط شيئا .. قذفه فى الهواء .. اتخذ مسارا دائريا ليعود عند أقدامه .. صاح :

- أنه الهواء اللعين ..

وانتابه الشعور بالإحباط لعجزه عن قذف الأشياء الصغيرة التى تصادفه فوق الرمال إلى أبعد مسافة داخل البحر ..

استدار إلى العجوز يائسا :

- هل كنت تصطاد عندما كنت فى مثل سنى..

نسى الصغير أن البحر قد ترك أثاراً عميقة على جسده الذى أوشك على التلاشى ، تسرب مذاقه الملحى داخل عروقه .. امتزج بدمائه فربطهما برباط لا ينمحى ..

- هل رأيت يوما عروس البحر ..

انتفض فجأة حين رأى تلك السحابة البيضاء تعبر السماء من فوقهما .. تقافز فى الهواء .. تابعها حتي اختفت عن عينيه :

- وعدتنى أن تقص لى حكايات عروس البحر مرة أخرى ..

عينا العجوز جمرتان متقدتان :

- لكنك لم تفعل ..

تكوم عند قدمى العجوز متخذا من ركبتيه متكأ لذقنه .. غمغم :

- سأجعل أبى يقصها لى ..

وتغضسن القلب داخل الصدر الشائخ .. تمنى لو يستطيع أن يقصها عليه مرة .. بل مرات .. لكنه لا يستطيع .. هو عاجز تماما عن أن ينطق بكلمة واحدة .. لقد كف الجسد منذ زمن طويل عن ابداء رغبته فى الحياة .. يتخذ خطواته حثيثا نحو الفراغ والصمت .. داعب الرمال بأصابعه الرقيقة ..

- هل حقا تخطف الرجال ..

يزيح الرمال العالقة بساق العجوز :

- لماذا لم تخطفك أنت أو أبى ..

تشنجت الساق العالقة .. وزام العجوز .. لم ير الصغير تقلصات الأصابع فوق الركبة .. نهض فى تثاقل .. نفض ثيابه .. نظر فى عينى العجوز :

- ولماذا لا تخطف الصغار..

ثم استدار فجأة وعدا نحو لا شئ .. راح يلوح للسماء ..

- عندما أكبر سأصطاد واحدة وأتزوجها ..

تزايدت الرغاوى المنسابة .. تجمعت عند حافة الذقن .. انفصلت قطرة فقطرة .. تساقطت فوق الساعد الأيسر .. شقت لنفسها مجرى بين أخاديد الجلد المغضن .. عاودت السحائب البيضاء ظهورها .. بش الصغيرلمرآها .. هتف ليسمع العجوز :

- عادت الطيور ..

تقلصت المسافة بينها وبين البحر .. طارت فوق رأسه .. تعالى صياحها .. رآها تهبط على الرمال .. تلتف حول ساقى العجوز :

- من أين تأتى كل هذه الطيور ..

حاول العجوز أن يحذر الصغيرمن الاقتراب منها .. عوى بصوت ذاب وسط أصوات الطيور المختلفة .. وتشنجت أصابعه المحكمة حول ركبته .. والصغير يجرى خلفها يذبها بيده الخاوية حينا وأخرى يقذفها بما يعثر عليه من مخلفات البحر ..

- لومعى بندقية لاصطدتها جميعا ..

أصواتها لا زالت تغلف الفضاء من حولهما .. رانت على شفتى العجوز ابتسامة مرتعشة حين أبصر الصغير يصوب نحوها سبابته مطلقا من

فيه صوت الرصاص.. ثم يسقط مرتميا على الرمال خافقا ذراعيه كجناحين..

لكن طائرا عنيدا تشبث بمكانة فوق الرمال .. استثار عناده الصغير فاندفع نحوه فانطلق الطائر لمسافة قصيرة وعاد ليحط قريبا منه .. قبل أن يكر خلف الطائر من جديد توهج النهار فجأة .. بدت الشمس المتوارية خلف السحائب المندوفة تحاول الفرار من أسرها .. تسربت حزمة من الأشعة أنارت الأشياء واشتعلت حواف السحائب بضياء مبهر عند المنفذ الذى انفلتت منه حزمة الضوء ..

هاهى ذى الشمس التى جاءا من أجلها. الصغير لا يفهم تحذيرات أبيه من افلاته للحظة بزوغ الشمس دون أن يعرض ساقى العجوز لأشعتها .. هل هى تقتل الحشرات كما تقول أمى أم هى تجعل العجوز يتحرك ويسير كما كان يفعل فى الماضى .. عليه الآن بالإسراع لاقتناص ولو شعاع صغيريصيبه علي الساقين العليلتين .. لكن الشمس العنيدة كانت تسقط على ظهريهما وتنشر على ساقى العجوز الذى بدا وجهه فى هذه اللحظة جامداً .. ورأى تحت انبهار الضوء تخثر الرغاوى البيضاء وتساقطت قشوراً صغيرة يذروها الهواء الذي بدأ يشتد..لا سبيل إلا أن يجعل العجوز يستدير نحو الشمس..انحنى ودس رأسه الصغير تحت ذراع العجوز المتدلية ومطوقا بذراعيه ظهر المقعد الخوصى .. جاهد أن يدفع بالعجوز والمقعد من جانب حتى يستدير معه..الآرجل الأربعة للمقعد مغروزة تحت ثقل العجوز فى الرمال حالت دون أن يتحرك قيد أنملة..تسارعت أنفاسه اللاهثة وهمس ورأسه لا يزال مدسوسا تحت الذراع المتدلية ..

- ساعدنى ..

ولمح ظل الرأس المهوش الشعر مرتسماً على الرمال المتموجة .. هل استطاع أخيرا أن يحرك العجوز بكرسيه الخوصى قليلا ..انتشى بنجاحه الضئيل وحثه ذلك على تكرار المحاولة وبكل ما ملك من قوة دفع بالجسد جاذبا إياه والمقعد نحو الخلف .. ساعده سقوط رأس العجوز إلى الوراء .. وفى لحظة مباغتة أحس الصغير أنه يهوى إلى الأمام ..تماسك .. لم يمكنه العجوز الرابض الآن فوق كرسيه الخوصى من الاحتفاظ بتوازنه .. سقطا معا على الرمال .. الكرسى الخوصى يليه العجوز فى نفس موضعه والرأس الصغير تحت ابطه .. شعر بأنه يتنفس رمالا .. سعل فى حدة ، وراح يجذب رأسه من أسفل ذراع العجوز المستميتة عليه بقوة .. رفس قدميه في الهواء .. صرخ ..امتلأ فمه بالرمال .. وتحت دفعات جسده ورفسات قدميه التوى المقعدالخوصى ومال على جانبه .. أصبح رأسه فى الفراغ الكائن خلف جسد العجوز . تريث يلتقط أنفاسا نقية ويبصق الرمال من حلقه .. ثم جذب رأسه بعنف فتراجع متهاويا .. تسارعت أنفاسه واعتوره شعور بالاعياء .. ولكنه لمح القاعدة الخوصية للكرسي من أسفل وساقى العجوز العاريتين مطروحتين فوق الرمال .. نهض فى لوعة .. اقترب ليرى وجه العجوز مغروزا في الرمال .. فى لهفة رفع رأسه حاثا اياه على النهوض ومساعدته لاعادته مرة أخرى فوق المقعد قبل مجئ أبيه فيناله من أذاه ما لا يطيقه .. وأسرع يجذبه من ساقيه فانفلت جسد العجوز متحرراً من أسر المقعد الخوصى .. حمل المقعد وأسنده من جديد إلى السارى ريثما يعيد العجوز اليه ..

كانت عينا العجوز تشخصان النظر فى تصلب نحو لا شئ ، وهتف الصغير فى ضيق :

- ألا تريد أن تساعدنى ..

ثم وهو يجذبه من يده :

- سيعاقبنى على وقوعك هكذا ..

الجسد كان ثقيلا .. والصغير كان ضئيلا .. وفكر الصغير كيف يقيم هذا الجسد من عثاره .. اهتدى رأسه إلى حل .. بيديه الصغيرتين جعل ينبش الرمال من تحت صدر العجوز يزيحها جانبا .. يوسع من الفتحة التى هو فى سبيله الى تحقيقها .. اتسعت وظهر الجانب الآخر من الرمال في الخلف .. ساعده الرمل المندى أسفلهما .. قدر سعة الفتحة ورأسه ثم دس به داخل الفتحة مما استقر الجسد الآن فوق ظهره .. وبكل عزمه رفع الجسد .. تدلى رأس العجوز من جانب والساقان من الجانب المعكوس .. بينما ارتكز الصغير علي راحتيه وركبتيه .. تحرك بحملة الثقيل فى اتجاه المقعد الخوصى .. انتشى لنجاحه المتوالى .. ولكن بعد خطوات قليلة دب الخور فى ساعديه وفخذيه وأخذت المسافة بين بطنه المنتفض وسطح الرمال تتقلص حتى انحط دفعة واحدة منكبا على وجهه .. عادت الرمال تملأ فمه .. ويتنفسها مع الهواء المتدافع داخل فتحتى أنفه .. لمح المقعد الخوصى فارغا ومستندا إلى السارى الخشبى .. انفرطت حبات من دمع .. كان جسد العجوز رابضا وضاغطا جسد الصغير الذى لم يدرك أن الشمس قد غابت خلف السحائب الرمادية المندوفة ..

انكسار دفء الظهيرة

من طرف عينه التى غشاها ضوء الشمس الساقط فوق جدار المدرسة المتهالك لمحه.. انشقت مفازة قلبه عن وهاد وجبال شاهقة .. اهتزت الحقيبة المتدلية من بين أصابع تجمد فيها رعب سنواته القليلة .. اختبأ بين أجساد ضئيلة وأخرى دونه جرما .. من خلل الفرجات المتاحة بينها رآه يستدير بجسده عند كل خطوة يخطوها ... تشققت العروق فى مفازة الأرض الجدباء.. يتوارى خلف السور الحديدى الفاصل بين الطوار والطريق البازلتى .. الشمس تشطره نصفين فيراه كما كان يراه دائما فى يقظته ومنامه .. جسد ضخم ووجه بلا ملامح .. عينان كعينى بومة تبرقان في ليل أسود .. تثير فى قلبه غبار الأيام التى انطمست داخله .. التفت إلى الوراء فى سرعة .. كان يحاول اجتياز الطريق البازلتى .. لاحظ أعوجاجا فى سيره وهو يقفز إلى الطوار .. ذراعاه تتأرجحان يمينا ويسارا لتحافظا على توازنه المفقود .. انساب الهلع إلى قدميه الصغيرتين .. راحا يتعثران ويحثان الخطو .. يلتفت برأسه الصغير من وقت لآخر ليتابع تضاؤل المسافة بينهما .. تنكشف له مفازة القلب فيغدو بين جفاف وهادها ومرتفعاتها .. تخيل أنه يناديه..يحثه على التريث ، فى صوته رنة مجهولة .. لم تكن شبيهه بتلك الصرخات العاوية التى تنتزعه من دفء فراشه .. انحسرت الشمس فجأة عن هامات البيوت المواجهة .. اغتمت السماء.. قبل أن يخطو خطوة أخرى هطلت الأمطار..أسفل تنده مشرعة تحاشى غزارة المطر المفاجئ ..هولازال هناك.. محتمياً بشجرة ضئيلة وشاحبة تنبت من أرض الطوار..عيناه المتربصتان لم تحيدا عنه..صنع المطر ستارا

شفافا .. بدا من خلفه كائنا خرافيا مثل الذين تقص له عنهم أمه كثيرا .. فى نفس اللحظة تولدت داخلهما فكرة واحدة .. ينتهز الصغير فرصة انهمار المطر ويفر إلى أحد الأزقة الجانبية .. ويتحين الآخر الفرصة فيهرع نحوه .. يحاصره ولا يدع له لحظة للهروب من عينيه .. لكنهما معا تسمرا فى مكانيهما..لم يفر الصغير..وهو ظل خلف جذع الشجرة لاهث الأنفاس..

لم ينتبها .. المطر توقف الآن ..ومن حواف التندة المبللة تتساقط قطرات واهنة .. يراقبها وهى تبرق قبل اختفائها فى بركة المياه المجتمعه تحت قدميه .. انحسرعن الشجرة الغبار والأتربة وبدا الجذع نظيفا ولامعا .. العينان شقتا الطريق .. اصطدمت نظراتهما . وبنفس المقدار تقدم الصغير وخطا الآخر نحوه .. كان اعوجاج سيره واضحا .. وقفت فى طريقهما بركة مياه تتوسط الطوار وتسد المنافذ عليهما .. خاض الصغير بحذائه المبتل قلب البركة .. حذا الآخر حذوه ..فى منتصفها تماما توقفا .. تلاقت عيناهما .. لم تكن عيناه مثل عينى بومة أطل داخلهما وتوارت داخلة مفازة القلب الجدباء .. ابتسم .. قال الرجل :

- كيف حالك ؟

رنا الصغير اليه وابتسم .. استدارا معا .. سار كل منهما جنبا إلى جنب .. لم ينبسا بكلمة أخرى .. عبرا الطريق البازلتى .. الذراعان تتأرجحان يمينا ويسارا .. الصغير ينظر نحو هدف مجهول.. عيناه لاتريمان .. عند منحنى الطريق الجانبى وجوار المقهى الصغير انعطفا بخطوات متقاربة ..حين واجهتهما السماء الشاسعة بلونها الرمادى همس الرجل فى صوت خفيض :

- ألاتخاف ؟

تحاشى الصغير النظر اليه .. نقل الحقيبة إلى الجانب الآخر ..

- أعرف أنهما يمنعانك عنى ..

مرت على صفحة وجهيهما نسمة باردة :

- أتشعر بالبرد ؟

شق وجه السماء طائران ناصعا البياض ، تابعهما معا .. سقطا فى مكان خلف السور الحجرى ..

- هل نذهب إلى هناك ..

تطلع إلى الرجل دون صوت :

- أتذكر .. كم لعبنا هناك ..

كان ينظرإلى أرض الطوار الرخامية :

- لم أنس لحظة واحدة ..

تأرجحت الحقيبة فى يده .. قفز من فوق بركة مياه ضئيلة :

- ألا تخشى أن تتأخر ؟

تتلامس ساقاهما حينا ..تتسع المسافة بينهما حينا آخر :

- هل أنت جائع مثلى ؟

مرت سيارة إلى جوراهما فى سرعة .. أطاحت بالمياه المتجمعه أسفل الطوار .. أصابتهما .. التفت الرجل فى صوت حانق .. سب السيارة وصاحبها ..ونظر إلى الصغير .. بغته ضحكا معا :

- هل تعرف .. كنت أراقبك كل يوم ..

ضيق المسافة بينهما :

- ألم ترنى ؟

عـاودته ضحـكاته وهو يحـاول أن يجتـذب يد الصـغير الطلـيقـة إلى جواره:

- يوما انتظرتك طويلا .. تجمدت من البرد ..

تلامست أصابعهما .. جفل الصغير وسحب يده فى سرعة :

- لم تحضر إلى المدرسة يومها .. أكنت مريضا ؟

عاد الطائران يحلـقان فى السمـاء فوقهـما .. هرع الصبى نحـو السور الحجرى لـيراهما عن قرب.. ساعـده فى الصعود فوق الـسور .. جرى فى مرح وهو يطوح بحقيبته فى الهواء :

- احذر السقوط ..

لم يسـمع صوته .. صـاح فى الطائرين اللذين ابـتعـدا كثـيرا .. حـاول مجاراته ولكن شيئا ما فى قـدمه يعوق حركته .. من خلف السحب تسللت أشعة الشمس المتوارية .. انسحـبت فوق المكان أضاءت واجهات البيوت .. التمعت حبات المطر الملتصق بالطوار :

- أنى جائع .. ألا تنتظر ؟

من فوق الـسـور الحجـرى أشار الصبي نحـو عربة تقف عند ناصـية الزقاق المـقابل تسـبق رؤيتها رائحـة " السدق " المقلى .. طالـبه بالانتظار وألا يبرح الســور الحجرى .. تابعه الصـبى بعينيه البـراقتين .. كان ضـئيل الهيـئة مـتداعى الجـسد .. لم يكن مثـل ذلك الذى قصت له أمه عـنه أياما وليال .. وضخمت فى رأسه الصغـير فكرة أن يأتى فى يوم ما ويختطفه من

حضنها .. كرهه وقتئذ ..رآه كائنا مخيفا يطويه بين جناحيه وينطلق إلى قصره المهجور فى أعلى الجبل .. يحبسه داخل غرفة مظلمة .. يسوط جسده الصغير ويسلخ جلد رأسه .. حلم به كثيرا ولم تغمض عيناه أياما توراى قليلا قليلا من ذاكرته وبدأت تنسحب صورته تماما.. حاول من خلف ظهرها وفى دهليز البيت أن يستحضر صورته الغائمة .. وجهه .. ملامحه .. كانت قد اختفت وذبلت. تركت مكانها فى القلب والرأس وهادا وجبالا شاهقة ..

- نأكل فى نفس المكان ..

فى صمته اتجه بلا أدنى التفاته اليه .. هو فوق السور والآخر إلى جواره يحمل اللفافة الدافئة :

- هل ترانى مخيفا ؟

يقرأ المسطور فوق جبينه .. أرجح الحقيبة طارداً أفكاره .. وجعل ينادى شيئا مجهولا.. يتابعه بخطواته المعوجة ويقفز فوق برك المياه .. بدأت الشمس تشع فى المكان من حولهما دفئا ..استطاب الصبى الدفء الذى انساب داخله .. وتناسى فى لحظات مخاوفة ..

بغتة جذبه من يده .. أطل فى عينيه .. لم يرتجف الصبى غمغم :

- أتعرف أنى أحبك ..

جذب الصبى يده فى سرعة وراح يتقافز فوق الطوار..هتف من جديد:

- هل تحبنى أنت ؟

لم يعره التفاتا .. واصل قفزاته الطائشة فوق السور ..قفز شئ أمام الرجل حجب عنه الرؤية وراح يتمتم بكلمات راعى أن تصل أذني الصبى:

- أعرف أنك لا تحبنى ..

لوح بيده فى الهواء :

- لقد أوغرا صدرك ..

توقف ليلتقط أنفاسه المتسارعة :

- لست قبيحا ..

وعوى بقلب جريح :

- صدقنى لست قبيحا ..

بجوار المبنى الشاهق عرج الصبى..كانت المسافة بينهما قد اتسعت، لم يستطع الرجل ملاحقته .. اكتفى بالنظر اليه من الخلف ، فى سرعة عبر الصبي الطريق ومن شق بين القوراب الجديدة دخل دون أن يحتى ظهره .. جاهد الرجل للولوج من الشق الصغير .. وجد الصبى وقد ألقى حقيبته على الرمال وراح يجرى هنا وهناك متجاهلا وجوده .. فى صعوبة أشرف على ساحل البحر المكفهر الوجه .. لا لون محددلمائه الثائر .. خليط بين الرمادي والأخضر .. هتف وهو يفرد اللفافة على الرمال ومستندا إلى ظهرقارب مقلوب ويمد ساقه علي راحتها :

- ألن تأكل ؟

تقدم الصبى وركع على ركبتيه .. .. داعب الرمال المنداه قبل أن يمديده . . تناول سندوتشا وراح يقضم منه فى صمت .. نظر الرجل فى وجهه .. ضحك وفمه مملوء بالطعام :

- أتذكر هذا المكان ؟

- أشاح الصبى بوجهه .. دفن عينيه فى البحر الهائج :

- كنا نسكن قريبا ..

وأشار بيد معروقة خلف البيوت البعيدة :

- أحملك على ظهرى كل يوم .. ونأتى إلى هنا ..

ضحك بلا مبرر :

- يوما كدت تغرق .. كان عمرك .. لا أذكر تماما..

وهتف فجأة :

- " السدق" طيب أليس كذلك ..

جاءت من خلف الزوارق دفقة هواء أوشكت أن تطيح باللفافة بعيدا ..

تمسك بأطرافها :

- يومها قذفت بنفسى خلفك ..

تنهد فى صوت مسموع :

- لولا عناية الله ..

ثم مرة أخرى :

- لماذا لا تأكل .. " السدق " طيب..

ولوح بيده فى الهواء بحركة لا معني لها :

- أنى أحب الشتاء .. هل تحب الشتاء مثلى ..

طأطأ برأسه فجأة . وانكسرت تعابير وجهه :

- الصيف يأخذك منى ..

وفى صوت ملتاع :

- لا أحب هذا الصيف اللعين ..

تجشأ وحمد الله كثيرا.. وانطلق الصبى يجرى فوق الرمال ويدس قدميه العاريتين فى زبدالموج المندفع نحوهما :

- احذر البرد ..

اكتشف الصبى فجأة اختفاء الشمس واقتراب الظلام ..نهض مرتعبا.. ارتدى حذاءه والتقط الحقيبة .. نظر الرجل فى عينيه .. همس :

- تأخرت .. أليس كذلك ..

خرجا من الشق الضيق .. قابلهما الشارع الخالى من المارة .. بخطوات متسارعة عبرالشارع .. توقف الرجل على الطوارالمقابل .. نظر فى وجه الصغير .. هتف :

- دعنى أراك ..

ثم تحول بجسده فى حركة مباغتة .. أعطاه ظهره .. سار إلى الامام دون التفاتة واحدة .. تابعة الصبى بعينيه البراقتين .. لم يكن مثل تلك الكائنات .. صعد إلى شفتيه شئ من أعماق وهاده ومرتفعاته يدعوه أن يهتف به .. لكن دفقة هواء عنيفة جعلت الرجل يحتمى بحوائط البيوت ويتكور حول نفسه .. يتدحرج فوق الطوار ككرة مطاطية .. لم يلحظ الصغير حين استقام عوده تلك الخطوات المعوجة .. وعاد المطر يتساقط من جديد ..

مقاطع من رحلة وشم

(١)

انتفضت فى عينيـه فرحة .. تلمس ساعد أبيه المـفتول .. داعبت أنامله تلك الشعـيرات النابتـة فى بشرة السـاعد الأسمـر .. لمح بعض شعـيرات بيضاء تنتصـب فى شموخ وتحـد ..ابتسم الأب نـفس الابتسـامة الودودة المرحبـة .. أطل من تحت ثنيات كم الجلباب الكالح سـيف ذلك الفارس المعلق على الذراع .. رفع يده وطوى الثنيـات حتي الكتف .. رآه ينظر اليه بعينين مكحلتـين .. رأى شاربه يبتلع نصف الوجه السـفلى .. تأمل شارب أبيه الكث .. قـارن بعينين فـاحصتـين بين شارب الفارس وشـارب أبيه .. شعر بالفخر وانتابته غبطة كبيرة .. عاوده تساؤله القديم :

- من هذا يا أبى ؟

ابتسم الأب ولاحت تعابير وجهه واشية بعطف متزايد :

- ألـم أقل لك من قبل ..

يحب أن يقص له أبوه عن ذلك الفارس كثيرا .. راح يتساءل من جديد .. استنام الأب لالحاح الابن :

- هذا أبو زيد الهلالى ..

فاحت رائحة طيبة تخللت أنف الأب فقال على الفور :

- قد يصيب البرتقال العطن .. ونحن لم ننقله بعد إلى القطار..

لم يعد يعنـيه البرتقـال .. لم يعد يعبـأ بتلك الرحلة التى يصطحـبه أبوه اليها . وتناسى رغبته العارمـة لرؤية تلك البلاد التى يحكى له عنها الكثير.. لم يعد يشـعر برغـبته لرؤية مـصر .. لم يعد يشـعر بذلك الضـجيج الذى

يحدق به من كل جانب .. قال مرة أخرى :

- أهذا أنت يا أبى ؟

اتسعت ابتسامة الأب وهز رأسه ، ربت على رأس الصغير :

- لست أنا يا ولدى ..

- أليس اسمك كأسمه ..

- ولكنى لست أبا زيد الهلالى ..

- ومن أبو زيد الهلالى ..

هز الأب رأسه فى رتابة ظاهرة .. قال فى ضيق :

- هيا قبل أن تصيب الشمس البرتقال ..

رأى الابن قسمات أبيه وقد تلونت بتعابير صارمة .... فانصاع لأمره .. واتجها إلى زنابيل البرتقال المكدسة عند باب القاطرة الأخيرة .. ولكن دبت فى قلب الصغير فرحته التى تناساها لفترة وجيزة وراح يساعد أباه فى رفع زنابيل البرتقال إلى جوف العربة الأخيرة

* * * *

(٢)

بعد سبع بنات جاء .. ألجمت الدهشة لسان الأب العجوز .. هام فى الدار لا يدرى ماذا يفعل .. كانت الفرحة أكبر من ذلك القلب البالى .. تلقى تهانى النسوة والرجال الذين جاءوا من كل فج..عانقوه فى ترحاب ..كاد يسقط فى تهالك .. انتشلته الأيدى من حيرته الطاغية ..وقالت القابلة :

- ماذا تسمونه ؟

من فوره قال فى صوت متلعثم :

- أبو زيد ..

وطوت الأيام أبا زيد .. بقلب واجف ترقب الأب العجوز خطوات الوليد الصغير .. انتعش فى قلبه الخوف العتيق .. وخشى تلك اللعنة التى تصيب أبناءه الذكور.. كم من الذكور دفنت يداى ..لا لن يموت..

همست الأم فى أذنه ذلك المساء :

- أوشك أبو زيد على بلوغ العام ..وأنا أخشى ..

قاطعها .. كمم فمها .. وصاح فى ألم :

- لا تنطقى .. سيعيش أبوزيد . سيعيش ..

* * * *

(٣)

أطل الفارس بوجهه المدهون بالسواد .. ارتجف قلب الصغير وتغضن حول الذراع التى انتصبت فى ارهاق إلى جانبه .. صرخ فى بهو القاطرة الأخيرة .. كر هنا وهناك.. شمر عن ساعده المفتول ورفع زنبيل البرتقال فوق الكتف .. انحشرت داخل يد الذراع المفتولة ثمرات البرتقال ... نظرإلى الابن الذى جلس فوق أحدالزنابيل منتظرا دورته بين الأجساد المتلاصقة .. أصوات مختلطة تزاحمت فى رأسه .. شعر بالاختناق.. أطل برأسه من نافذة الباب المكسورة الزجاج .. كل شئ يتحرك ببطء إلى الوراء .. القطار يتحرك نحو ذلك العالم الخلاب الذى قص له عنه أبوه ذات ليلة .. وانتفض القلب فرحة ..لمح أباه وهو يقف عند أول مقعدين فى القاطرة . يشقل كاهله زنبيل البرتقال .. امتدت من فوق الأرفف

المرتفعة أقدام ميريه وأخرى لا أصل لها .. نظر أبوزيد إلى هذا الحشد الضخم .. سأل الله العون .. وأن يعود إلى ولده وقد تخلص من زنابيل البرتقال.. يعرف أن الأمر شاق عليه .. ولكن تملص الفارس من فوق الذراع .. ضاق بتلك الأجساد التى تلتف حوله .. أراد أن يعمل فيهم سيفه الملصوق على البشرة السمراء .. أحس بالسيف ثقيلا فى يده .. عوى كالجريح ..لم يستجب له أبوزيد ولا زنابيل البرتقال .. اشرأب لينظر إلى عينى الابن المقعى فوق أحد الزنابيل .. كان يراقبه من بعيد .. صاح فيه .. لكن الصبى كان متشاغلا عنه .. ينظر إلى المرئيات التى تعدو هاربة إلى الخلف .. وسمع صوت أبيه يصيح بصوت بدا غريبا على أذنيه :

- عشر حبات بخمسة قروش ..

وتردد صدى صوته فى أذنيه مفزعا ومرعبا..

* * * *

(٤)

فوق ظهر حمار أعرج كان أبو زيد يجلس فى خوف .. يكلل رأسه تاج من ريش الأوز . الأب العجوز إلى جواره يشد من أزره .. التف حوله أولاد وبنات يصيحون بأصوات لا يفهمها .. أراد أن يبكى ولكن نظرة الأب العجوز أزالت من قلبه الخوف..داروا فى أزقة الحارة..تجمع الناس، تشبث بطاقة جلباب الأب العجوز ، ربت على رأسه مشجعا .. داروا فى الأزقة بلا توقف .. وكان الأولاد والبنات يصيحون فى أصوات متداخلة :

- يا أبو الريش أن شاء الله تعيش ..

* * * *

(٥)

تثاقلت الرءوس ، تساقطت فوق الصدور .. مازال الزنبيل ممتلئا .. لم يهتم أبو زيد .. يدرك أنه فى لحظة ما سيبيع كل ما تمتلئ به الزنابيل من برتقال .. عاد إلى الابن ليسترد أنفاسه اللاهثة .. قال فى أذنه :

- ألم أقل لك .. الأمر ليس سهلا ..

قال الابن فى نفس حماسه :

- ولكنى أريد أن أرى مصر ..

- مصر مازالت بعيدة .. والطريق شاق ..

- ماذا كنت تفعل بين الناس ..

- أبيع البرتقال ..

- ولماذا لا تبيعه فى السوق مثل حمدان ..

- السوق لا يصلح .. والسعى مطلوب ..

- ولكنك لم تبع شيئا ..

- الأرزاق بيد الله ..

ثم عاد يسأل من جديد :

- متى نصل مصر؟

* * * *

(٦)

فى فناء المدرسة الصغير .. قال :

- لأبى ذراعين قويتين ..

قال الصبى الآخر فى ضيق :

- أبى مريض..

- أبى يرى الدنيا كلها .. هل ذهب أبوك إلى مصر؟

- مصر بعيدة ..

- هل رأيتها ..

- أسمع عنها..

- وعدنى أبى أن أذهب معه إلى مصر..

التقط سعفاً من نخيل وشهره أمام عينى الآخر :

- أتبارزنى ..

- سأهزمك ..

- أنا قوى مثل أبى .. أبى كان يهزم الرجال ..

- ولكنى سأهزمك ...

- ما رأيك .. أكون أنا أبوزيد الهلالى .. وأنت تكون الزناتى خليفة..

- أبوزيد الهلالى كان صديقا لأبى .. وقد اشترك معه فى حروب كثيرة

ضحك الصبى الآخر .. قال :

- أبو زيد ليس إلاحدوته ..

صاح فى غضب :

- أنت كاذب .. أبو زيد مرسوم على ذراع أبى ..

* * * *

(٧)

تصبب عرقا .. الحر شديد ومخلوط بأنفاس الناس النائمة .. ورائحة البرتقال أصبحت قوية ونفاذة .. لا أحد يسمع صيحاته المدوية .. والابن

ينتظر أوبته من قلب القطار .. ماذا يقول له هذه المرة .. لم تبع شيئا، سيتحطم أمله فى زيارة مصر وشراء ملابس جديدة له ولامه وجده العجوز .. ما أقسى أن تعود خاوى الوفاض ، تذكر كم من الأعمال تنقل اليها .. لم يفلح فى احداها.. كثير الثورة والغضب لأتفه الأسباب ، وكثيرا ما يطوى بطنه على جوع .. لم تصبح وحدك .. قفزفى عنف طاردا تلك الهواجس .. أحس بالزنبيل الثقيل كحمامة صغيرة فوق كتفه .. وهتف مشيراً لانتباه الناس :

- خمس عشرة حبة بخمسة قروش ..

* * * *

(٨)

وجهها كان قبيحا ومنفرا .. ابتسمت فى وجهه فصرخ وتعلق بذيل جلباب الأب العجوز. . ابتسمت المرأة وداعبت شعره المجعد وربت الأب العجوز على رأسه ..رآها تفترش الحصيرة المهترئة وتأمرالأب العجوز الذى يلبى طلباتها بخفة :

- تأكدت من غليها جيدا ..

- كل التأكيد ..

- أهى مرارة عنز ..

أو مابرأسه .. واحضرت الأم قدرا يتصاعد منه بخار كثيف . يصعد إلى سقف الحجرة ،قالت المرأة :

- اجعلها تبرد ..

راح يداعبه ليشغله عما يجرى فى الحجرة .. ثم أمسك بيده ودنا من المرأة المنفرة .

ابتسامتها سوداء .. أطلق لصرخاته العنان.. هدأ الأب العجوز من روعه .. شمر عن ساعد الصغير .. امسكه بقوة حتى لا يتحرك ، دنت المرأة منه وراحت تغمض يدها فى الماء الأزرق بجوف القدر..قالت شيئا لم يفهمه ..وغرزت شيئا مدببا داخل لحم ذراعه..صرخ..حاول التملص..لم يفلح..

فى الصباح رفع ذراعه ليرى أشكالا غريبة مرسومة على ذراعه.. تساءل فقال الأب العجوز :

- هذا فارسك .. ولتصبح مثله ..

لم يفهم ولكنه تأمل الفارس الذى يشهر سيفه فى الهواء ..

* * * *

(٩)

لا أحد يسمع .. لا أحد يرى .. لا أحد يتكلم .. والعشرون أصبحت بخمسة قروش .. وهو ما زال يزعق فيهم .. ولا أحد ينتبه .. الكل مشغول عنه .. والصبى يحلم بمصر .. والحذاء الجديد والزنابيل ما زالت ممتلئة .. استيقظوا أيها النيام .. وقال الفارس .. دعنى أوقظهم بحد سيفى .. ابتسم وقال هذا زمن لا ينفع فيه السيف . وصاح بغرابة :

- الثلاثون بخمسة قروش .

وكان صوته مذبوحا على سيف فارسه المعلق فوق ذراعه المفتولة..

* * * *

(١٠)

- هل تستطيع يا أبى أن تهزم حمدان ؟

- أنا أهزم الدنيا من أجلك..

- حمدان اليوم تشاجر مع رجال كثيرين وهزمهم ..

- ولكنه أصيب فى رأسه ..

- لا أحد يستطيع أن يصيبك فى رأسك ..

ثم فى صوت واثق قال :

- هل يستطيع أحد أن يصيبك فى رأسك؟

ابتسم الأب وازدرد همومه .. قال الابن مرة أخرى:

- لا أحب أن أراك مهزوما يا أبى ..

ربت على رأسه فى حنان .. قال الصبى :

- هل انهزم أبو زيد يوما ..

وقبل أن يجيبه الأب واصل :

- أعرف أنه لم ينهزم أبدا .. وأنت كذلك يا أبى .. لن تنهزم أبدا ..

ضمه إلى صدره ولم يدر ماذا يقول فلاذ بصمته المقهور ..

* * * *

(١١)

سرى خدر فى جسده .. أوشك على التهالك .. أسند زنبيل البرتقال على حافة أحد المقاعد .. التقط أنفاسه .. سيبوء كل شئ بالفشل .. بصوت خرج من أعماقه السحيقة هتف :

- الثلاثون بخمسة قروش..

لا يدرى ماذا أصابه .. راح يردد فى نغم متراقص :.

- الثلاثون بخمسة قروش ..

ولكن أحداً لم يعره اهتماما .. وضع الزنبيل على أرض القاطرة .. وأخرج شاله وشده حول وسطه .. فى بداية الأمر لم يكن يتصور أحد ماذا يصنع هذا الرجل القادم من أرض بعيدة ..

قال فى صوت مرح :

- الكل ينتبه ..

وأخذ يدق بيده على ظهر المقعد .. تراقص جذعه فى البداية .. تفتحت العيون واشرأبت الأعناق .. وغنى بصوت جاف :

- الثلاثون ..

وردد الناس فى نغم متجاوب :

- بخمسة قروش ..

ودبت فى القاطرة الأخيرة حركة غريبة غير عادية .. سرى فيها نشاط كبير .. وأصبح أبو زيد محط أنظارهم لم يهتم بشئ .. ظل يرقص فى فرح وسرور .. تناسى كل شئ .. عليه أن يعود بلا برتقالة واحدة .. ضاق صدر الفارس المعلق على الذراع المفتولة .. وصهل الفرس ورفع قائمتيه فى الهواء .. نفث زفيره فى وجه أبى زيد .. ما كنت أستطيع أن أفعل شيئا ..

- الثلاثون..

- بخمسة قروش ..

دبت فى القاطرة الأخيرة حركة غريبة غيرعادية ..

لا يدرى ماذا أخل بتوازنه فهوى علي الأرض.. حين هم بالنهوض واجهته عينان قاسيتان .. اهتز كيانه ..تنبه لما يصنع .. أراد النهوض .. خذلته ذراعه المفتولة .. وصرخ الفارس.. حاول أن ينهض من كبوته .. لا يدرى هل لمح دمعتين تجريان فوق وجنتيه .. شهق فزعا .. أبصر ولده يتراجع ويخفي وجهه بين راحتيه .. اختفى ولده بين أقدام الناس المتشابكة .. صرخ .. تاه صوته بين الغناء المتصاعد ..

- بخمسة قروش .

رفع ذراعه لعل أحدا يساعده في النهوض .. انكمش حول نفسه .. تخبط في الأقدام .. انقلب زنبيل البرتقال .. داسته الأقدام.. فاحت رائحته ..لم يصدق الصبى الصغير ما يحدث ..كذب عينيه .. هذا ليس أبى .. شق طريقه بين الأجساد المحتشدة حول الرجل المقعى على الأرض .. رأى أباه مكوما بين الأقدام الغليظة .. هز رأسه نفيا.. لست أبى .. لست أبى ..وارتفعت يده المفتولة لولده الصغير.. تراجع إلى الخلف ..وكان سيف الفارس مكسورا ، ومطروحا بلا فائدة إلى جوار زنبيل البرتقال .. الذى فرغ تماماً ..

صورة للحائط القديم

جرداء الـحوائط .. يسـترخى الخـواء في تثاقل فـوق كل شئ .. رتيب الزمن.. تساقطت بكارة أيامه كأوراق جافـة .. لم يبق سوى فنجان القهوة يحتسيـه فى تراخ في ركن المقهى.. وعينان ذاب سوادهما يلـتقطان الحياة الزاخرة مـن النافذة الوحـيدة بصعـوبة .. وطاقم الأسنان الغـارق فى كوب الماء طوال اللـيل.. وتلك الزيارات القليلة لأولاده وابتسـاماتهم البـاهتة .. لاشئ جـديد.. منذ الـصبـاح تكالبت على ذهنه أفـكار غـريبـة .. مـازلت موجودا أتنفس غبار الحيـاة .. لـم أمت بعد .. وبدأت أحلام مذعورة تقض مضجعه .. يجتر لحظات الألق البـعيدة بفم انتزعت أسنانه .. يقضى جزءا من الليل يبعـثر أوراقه الصـفراء.. يتطلع إلى الصور القـديمة لأولاده .. لم يكتشف الا مؤخرا أنه لم يترك لأولاده شيئـا يذكرهم به .. فلتقض أسبوعا معنا..ألا تضـيق بالوحدة ..نرحب بك دائما ..كلمات جـوفاء ..من خلف الوجوه أتلمس ضيقهم بى..فلأ تنفس الخواء وحدى..

قال وهو يحتسى قهوته :

– أصبح الأولاد بعيدين ..

يتطلع إلى الخـارج خـلال اطار النافذة الوحـيـدة .. ثمة بعض الهـواء يمرح فى الخارج .. أحس بالبرودة وتفاقم شئ فى داخله ..

– ما أبعدهم ..

لـم يزل ذلك الحلم يراوده حينا بعد حين .. يراهـم يلتفون حول صورة كبيـرة له وهو فى سن الشباب .. يقبلون الزجـاج .. يتمسـحون بهـا .. شعر

بسعادة .. وراح يبعثر أوراقه عسى أن يعثرعلى صورة شبيهة لصورة الحلم.. لم يعثر على صورة واحدة متماسكة ..تهالكت من فرك أصابع يده .. لا بدمن صورة جديدة ..

فى الصباح حلق ذقنه بعناية شديدة .. شذب أطراف شاربه .. تأمل نفسه فى المرآة .. دخل ليأخذ حماما .. عاد ليقف أمام المرآة من جديد .. رجل شعره الفضى .. جفف طاقم الأسنان جعله ناصعا تماما .. دسه بين فكيه .. انتزع من جوف الدولاب حلته تلك التى شهدت يوم عرسه .. غمغم فى اصرار:

- مازلت موجودا ..

قبل أن يقف أمام الكاميرا تطلع إلى نفسه فى المرآة المختفية خلف الستار.. ابتسم وأسلم نفسه للرجل .. أمال ذقنه يمينا ..يسارا .. قال:

- هكذا أفضل ..

برق الضوء.. خرج منتشيا ..فى ركن المقهى المحصور بين اطار النافذة الوحيدة جلس يحتسى قهوة الصباح .. رنا إلى الطريق .. زغردالقلب فى الصدر .. ردد فى خفوت :

- مازلت موجودا ..

حين استلم الصورة الجديدة ذات الحجم الكبير طفق يعرضها على رواد المقهى ليبدون فيها رأيهم ..دسها داخل ظرفها بحرص متناه وراح يحتسى قهوته .. لم يبق الا الحصول على اطارمناسب لصورته الجديدة ..لم يكن بالمستطاع شراء اطار جديد تماما .. خطر بذهنه بغتة عم برهان

بائع الروبابكيا .. وحينما استدار ليلقى بعينيه خارج النافذة ومض ضوء على الجانب الآخر من الطريق .. شئ ما يبرق بين حطام الأشياء المكدسة فوق العربة الخشبية .. اقتربت العربة من اطار النافذة .. لمح ابتسامة عم برهان تسبقه .. التقت عيناهما ...قريبا من النافذة وقف عم برهان .. قال :

– أتحتاجنى .. ؟

دهش.. ولكنه لم يملك إلا أن يقول:

– جئت فى وقتك ..

– ما حاجتك ؟

– اطار لصورتى الجديدة ..

قال عم برهان :

– جاهز...

ثم لوح بسبابته فى الهواء :

– لا مساومة ..

انتزع من بين حطام العربة اطارا ليس بالجديد ولكنه مناسب تماما :

– هذاطلبك ..

فحصه فى عناية .. اغتبط داخله .. لم يساوم ..ابتسم عم برهان وهو يوليه ظهره ساحبا عربته خلفه .. قبل أن يجلس فوق مقعده أسفل النافذة .. نظر إلى عم برهان .. كان يتلفت اليه ويبتسم ابتسامة لا معنى لها .. تأمل الاطار .. فجأة تنبه إلى وجود صورة لرجل أسفل زجاج الاطار .. فهمس:

– ما حاجتى لهذه الصورة ..

حين رفع فنجان القهوة إلى شفتيه لمح شيئا غريبا فى صورة الرجل

الآخر .. انه قريب الشبه منه .. شعر فضى وشارب مشذب .. تأمل الصورة لعل عينيه فقدتا القدرة على الرؤية ..ليست هذه الصورة لأحد سواى .. بهت .. هذه صورتى تماما .. التاع .. لم يدر ماذا يصنع قفز إلى الخارج ليلحق بعم برهان ولكنه لم يعثر له على أثر ..

لم ينتظر حتى يجئ الصباح .. طرق باب ولده الأكبر فى الليل .. يتسحب فى بطء حثيث .. قال لولده :

هل نسخت احدى صورى القديمة ؟

فى دهشة قال الابن:

- لم أفكر فى هذا من قبل ..

ترك الابن فى دهشة .. خرج يتعثر فى خطواته .. سار فى الطرقات على غير هدى .. تعب .. قال الابن الأصغر :

- ما الذى تفكر فيه يا أبى ؟

همس في ذهول :

- لا شئ ..

لم يستطع النوم .. الصورتان متجاورتان فوق الحائط.. لا فرق كبير بينهما .. تأملهما معا ..واحدة ذات أطار مذهب والأخرى عارية من كل رونق..

قبيل حلول الفجر هبط إلى الطريق .. المقهى يفتح أبوابه .. فى ركنه تحت النافذة جلس فى تراخ .. سأل النادل:

- هل رأيت برهان ؟

قال النادل :

- لم يظهر بعد ..

لا يدرى كم من الوقت مر وهو يترقب ظهور برهان .. انتصف النهار .. لم يع برواد المقهى الذين راحوا يثرثرون.. وبدأت الشمس تلطف من حدة برودة الظهيرة ..ولكن هاهى ذى عربة تدنو من إطار النافذة .. قفز هامسا :

- أخيرا جاء برهان ..

حين دنا من الرجل لم يكن هو برهان .. توقف مرتبكا أمام العربة فتساءل الرجل :

- أتحتاج شيئا ؟

ألفى نفسه يقول :

- أبحث عن اطار مناسب ..

قال الرجل :

- لا مساومة ..

سحب من جوفه العربة اطارا .. تناوله فى قلق ،، قبل أن ينتبه لوجود صورة خلف زجاج الاطاركان الرجل قدسحب عربته مبتعدا .. هاهى ذى صورة أخرى لى..صاح فى رعب خلف الرجل الذى هتف فى غضب :

- لماذا لا تناديني باسمى ؟

قال :

- لا أعرفك من قبل ...

فقال الرجل :

- كيف لا تعرفنى .. أنا برهان ..

بهت .. تراجع إلى الخلف .. لم يكن الرجل شبيها لبرهان الذى يعرفه جيدا.. ارتد إلي الخلف فى فزع .. وقف يحدق فى الرجل فى ذهول بالغ:

زحفت الريبة إلى صدره .. لم يزل يعدو خلف كل بائع روبابكيا .. أن فى الأمر شيئا ما . هناك مكيدة حتما .. ماذا يدبر الأولاد لى ؟

- أمعك اطار مناسب ؟

- عندى كل ما تطلب ..

- أرنى ما عندك ..

التفت إلى الصورة القابعة فى صمت خلف زجاج الاطار .. هذا شبيه لى تماما .. لاخلاف :

- من أى مكان حصلت على هذه الصورة ؟

قال بائع الروبابكيا فى غضب :

- أتحقيق هذا ؟

قال فى ريبة :

- ماسمك ؟

قال الرجل فى حنق ظاهر :

- برهان ..

هذه مكيدة لا شك ..

كادت تغطى الصور جدران الحوائط .. يتلفت الى هذه وتلك .. ماذا يدبر لى .. لو أعثر على برهان الحقيقى ..قال النادل :

- لم يظهربعد..

ولكن أحدا همس من خلف النافذة :

- أتحتاجنى ؟

قام كالملسوع :

- برهان .. أين كنت ؟

قال فى ابتسامة لا معنى لها ؟

- كنت أبحث لك عن اطار جديد ..

وقذف اليه باطار آخر.. تلقـفه .. حدق فى داخله .. صورة أخرى له .. هم بالنهوض .. كـان برهان قد اختـفى من خلف اطار النافذة الوحيدة .. طوح بالاطار .. تناثر حطامه حول أرجل المقاعد والمناضد..

وهرع الى الطريق يصيح بصوت حائر خلف لا شئ :

- برهان .. انتظر ...

العـودة إلى الوطـن المفقـود

من تحت قدميه أنت الدرجات الخشبية .. تردد صداها فى ظلام بئرالسلم .. تخلل الصدى أذنيه فتهاوى شئ غليظ فى صدره .. من أعلى تسللت دفقه هواء باردة ارتجفت لها أصابع يديه التي تيبست فوق الدرابزين .. استدار ليعود القهقرى .. ومضى ضوء خافت أعلى رأسه .. ارتعشت أوصاله .. صدمته حروف منحوته فى الجدار المتهالك .. ابتسم وتداعت الأيام الموحلة في الذاكرة .. أزت الدرجات من جديد ..خطواته ثابته لا تريم .. استقبله المصباح المشنوق على الجدار .. ارتطمت بزجاج المصباح فراشة ضالة .. سمع صوت ارتطامها .. تهاوت واختفت فى ظلام بئر السلم .. أراد أن يصيح بأعلى صوته .. أن يوقظ ذلك الشئ الثقيل داخله .. تفاقم صدى أنات الدرجات الخشبية .. رفرف طائر حبيس وهو ينفلت من فراغ البيت العلوى.. وذاب فى رقعة السماء التي أطلت فوقه .. برقت نجوم متناهية فى البعد واختفت عن ناظريه .. استقبله الباب الكالح .. تصور أن أحدا ما ينتظره بالداخل .. ينتظرأويته من البلاد البعيدة .. أخرج المفتاح الصدئ الذى احتفظ به لأعوام مديدة .. عالج ثقب الباب .. دفع به فى بطء فأصدر صوتا التهبت له حواسه .. اشتم رائحة التراب والقدم .. سعل .. الظلام يخنق كل شئ.. امتدت أصابعه فى الهواء .. يعرف طريقه تماما.. تلمس سطحا ثلجيا .. تراجعت يداه .. عاودت الاقتراب من جديدمن السطح الثلجى.. زجاجة لمبة الغاز .. هبط بيده إلى أسفل .. مسح السطح الخشبى .. اصطدمت أصابعه بشئ ما .. أدرك ماهيته .. التقطه .. ومضى ضوء مشتعل .. لمحت عيناه كل ما افترش

النضد الدائرى.. لمح نصل سكين ما زال موجـودا عند حافة النضد.. أزاح السطح الثلجى وأشعل الفتيل.. أحكم الغطاء الزجاجى .. حبات من زيتون تيبس سوادها واضـمـحل .. انكمـشت فى جـوف الطبق .. نفخ التـراب المتراكم فوق النضد فتناثرت من حوله عاصفة ضبابية .. سعل .. وقف فى منتصف الغرفة .. تأملها .. كما برحها منذ زمن طويل.. حين استدار ليتجه نحـو مكتبـه المتـداعى رآه يشـخص فيـه النظر..بادله نظراته .. ولـم يعـره التفاتا ..نفض بعض الأتربة من فوق المقعد الخشب . نفض يديه ثم تهالك فوقه .. رفع اليه عـينين فاحصتين .. مازالت عيناه تصـعدان فيه النظر .. لم يهتم بوجودة .. أخرج علبة سجائرة الـمذهبة وراح يشعل سيجارة .. أطلق أنفاسهـا فى فراغ الغرفة أحس بالاختناق.. نهض.. فتح النافذة المـواجهة للمكتب .. طالعـه وجه النجوم .. والسـماء سوداء مـغبرة .. أحس بهـبوط مفاجئ.. التفت اليه .. لم يبرح مكانه .. يجلس إلى مكتبه القديم .. أراد أن يقول شيـئا .. تاهت الكلمات بين شـفتيه .. لم يكن ينتظر وجـوده بعد هذا الزمن الطويل .. ولـكنه يصر على مـواجهـتى .. نفـث دخان السـيـجـارة وعادإلى المقعد الخـشبى. وتشاغل بازالة التراب الذى علق بطرف جاكت البدلة الحديثة .. فاجأه الآخر قائلا :

- اعطنى واحدة ..

رنا اليـه .. ناوله فى برود علبة السـجائر..أخـذ واحدة ووضـعهـا إلى جوار ذراعه المرتفقة حافة المكتب.. قال وهو يضع ساقا فوق الأخرى:

- مازلت كما أنت..

برقت عيناه من خلف المكتب .. ابتسم .. نفس ابتسـامته القديمة والتى بات يكرهها .. رد الآخر :

- وأنت تغيرت كثيرا ...

نفث دخان السيجارة في حنق ظاهر . . تأمل رقعة السماء التى تبرز فى فراغ النافذة واجهه قائلا :

- ما كنت أتوقع وجودك ..

داعـبت يداه بعض أوراق مـوضوعـه فى اهمال فـوق المكتب .. لوح باحداها في وجهه .. اربدت سحنة الآخر وتابع بريق النجوم فى الخارج :

- وما كنت أتوقع عودتك ..

نهض من خلف المكتب .. دار دورتين في الغـرفة .. وقف قبـالته ينظر اليه مبتسما .. احتقن الوجه الوردى وازور عنه.. أجفل حين قال الآخر:

- ازددت سمنة ...

لم يعره التفاتا وراح يدخن سيجـارته في تململ .. هبط عليهما صمت خاشع لـم يمـزقه سوى رفرفة جناحـى خفاش دار فى فراغ النافـذة واختفى فى البعد .. عاد ينفض طرف الجاكت فـى تأفف .. لم يرفع اليه عينيه قال وهو مازال يجتلس المقعد الخشبى:

- أما زلت تحتفظ بكتبى ..

قال الآخر وهو يعود إلى مكتبه :

- كل شئ كما تركته ..

فى غضب قال وهو ينفث فى وجهه دخان سيجارته الذهبية :

- ولكنك أهملت كل شئ..

لوح بيده فى الهواء .. سقط ضوء اللمبة فوق وجهه فبرز شارب سميك يكلل به شفته العليا:

- لم أحرك شيئا عن موضعه ..

وبدت لعينيه ثياب الآخر رثه وبالية .. صعد فيه نظرات تشف لم يهتم به من خلف مكتبه .. قال :

- حتى طبقك ما زال موجودا كما تركته ..

لمح الطبق بجوار لمبة الغاز .. اطفأ السيجارة فى منفضة صغيرة .. نهض .. أطل من النافذة . تنهد .. تشمم الهواء براحة غريبة .. ولكنه أحس بأن كل شئ قد ضاع من يده .. باغته قائلا من خلف المكتب :

- أما زلت تذكر ..

تنهد عند النافذة :

- ومن ينسى ..

- هذه الليلة كنت قلقا ..

-كنت على وشك السفر فى الصباح ..

رفرف الخفاش من جديد فى فتحه النافذة .. تابعاه حتى اختفى في ظلام السماء..

- تركت كل شئ وسافرت ..

فى أسى قال :

- لم تكن أمامى حيلة ..

لوح من خلف المكتب بسبابته فى الهواء :

- لا تنكر .. لقد هربت .. لم تستطع مواجهة نفسك ..

أخرج سيجارة أخرى ..تشاغل باشعال طرفها قال فى صوت حازم:

- لم أهرب ..

صاح الآخر في غضب:

- بماذا اذن تبرر سفرك ..

- لم تكن أمامى حيلة ..

نهض من خلف المكتب وعوى فى وجهه :

- كان يجب أن تواجه مصيرك ..

- فقدت كل أسلحتى ..

لا بل تركتها في ساحة الحرب تعيث بها الأقدام ..

ثم فى صوت أكثر حدة :

- لقد بعت قضيتنا جميعا .. واشتريت نفسك ..

فى عصبية رد الآخر وهو يمسح طرف الجاكت :

- لم أكن مجنونا حتى أقف فى وجه الأعـاصير .. كنت لن أقوى على احتمال السجن ..

حينما استدار سقطت على وجهه حفنة من ضوء اللمبة الكالح :

- وأيضا حلقت شاربك ..

بلا وعى تحسس موضع شاربه :

- لم تكن منه فائدة ..

- كنت تتباهى به ..

لم ينبس .. تحركت دفقـة هواء حركت شيئا مـا فوق السطح .. انثالت الأتربة فـوق الجاكت الثمـين .. نفض الأتربة فى غيظ .. وراح يهندم من حلته ثم استدار والتقط علبة السجائر من فوق المكتب :

- ناولنى سيجارة أخرى ..

بحلق فى وجهه .. رأى شاربه كثا :

- ألم تتخل عن هذه العادة ..

- كيف أتخلى عنها وأنا لا أملك لها دفعا..

- كنت لا تجد ثمن سيجارتك ..

- ولكنى لم أتخل عن قضيتنا ..

أصدر صوتا ينم عن ضيقه المتناهى .. قال :

- ماذا فعلت لك قضيتنا ..

- وماذا فعل لك هروبك ..

صرخ حانقا :

- لا تقل هروبي .. لست خائفا من شئ حتى أهرب ..

- كنت خائفا أن تشحذ سجائرك مثلى ..

نفخ الهواء فى كمد ظاهر .. وعوى فى وجهه هذه المرة :

- مازلت قاسيا كما أنت ..

قال ليشق جرحا قديما فى صدر الجالس خلف المكتب :

- أنت تهنأ بمضاجعة الفقر ولا تحرك ساكنا ..

- حقاأضاجع الفقر ولكنى لا أدع أحدا يضاجع كرامتى..

- مللت منك ومن تلك الترهات التى ترددها كالببغاء .. لى أحلام أخرى .. وأنت معدوم من الأحلام ..

قهقهه ضاحكا .. ارتجت جدران الغرفة وانثالت الأتربة من جديد ..

صرخ الخفاش الأحمق فى فراغ النافذة .. قال من بين قهقهاته :

- كنت تحلم بسيارة فارهة ..

قام كالملسوع وتذكرشيئا ما .. اتجه نحوه فى عنف .. جذب يده من خلف المكتب :

- تعال لترى كم هى رائعة سيارتى ..

جذب يده فى قوة وجلس خلف المكتب .. لوح له بيده فى تأفف :

- لا تعنينى سيارتك فى شئ ..

- دائما تصدمنى ..

- أنت تتقن الضحك على نفسك ..

- وأنت لم تقدرصعوبة حياتى القديمة ..

واجهه بيد مفرودة الأصابع :

- لم تقل لى كم من الخطوات تقدمت بقضيتنا ..

في نرفسة مغالية قال :

- لم تعد تعنينى قضيتكم فى شئ.. ثم هل تقدمت أنت بها ..

تململ وهو يجيب من خلف المكتب :

- لا .. ولكنى لم أتخل عنها ..

انطلق يضحك فى رعونة مفاجئة .. نفض الآخر سيجارته تحت مقعد المكتب ..

- لم تتخل عنها .. أكذوبة جديدة ..

- أنت تعرف كم من الصعوبات نواجهها ..

تهادى إلى أسماعهما صوت ارتطام شئ غليظ .. وتهاوى شئ لم يدركا كنهه .. وعاود الخفاش خفقاته المتتالية في فراغ النافذة .. وران عليهما صمت كئيب موحش .. تشاغل أحدهما بسيجارته أما الآخر فراح

يقلب فى الأوراق الموضوعة على المكتب :

- ما رأيك لو أخذتك فى نزهة بسيارتى..

أومأ الآخر رأسه فى حزن وقال :

- لقد أترفت كثيرا ..

تقفز فجأة محاولا تغيير دفة الحديث :

- أريد أن أقدم لك شيئا ..

فى صوته القديم العنيد:

- ولماذا ؟

- أنى أشعر بالندم لأننى تركتك على هذه الحال ..

- وأنا لا أشعر بالندم لأنى انتظرتك..

ثم فى صوت حاد آمر قال:

- لماذا أتيت إلى هنا ..

تلعثم اللسان منه .. قال أخيرا :

- جئت آخذ أشيائى وكتبى..

- وما حاجتك اليها الآن..

- من باب الاحتفاظ بالذكرى ..

- كلا أنت تريد أن تجردنى من كل شئ .. أنانى بطبعك ..

- أكون أنانيا لو طلبت بحق من حقوقي..كل ما فى هذه الحجرة ملكى

نبهه قائلا فى صوت حاد :

- ولكنى لست ملكك ..

كمن تذكـر شيئا.. نهض .. مسح بعينيه الحوائط الأربعـة .. أشار إلى أحد الجدران قائلا :

- أين أخفيتها ..
- عمن تتحدث؟
- صورتى القديمة ..
ضحك من جديد .. غادر المكتب .. قال :
- هذه لم تعد من حقك ..
- أتريد أن ترثنى وأنا مازلت على قيد الحياة ..
هذه المرة استطاع الخفاش أن يدخل الغرفة .. صاح فى آذانهما .. أطبقا عليه أياديهما . مازال الصوت حادا والخفاش يرفرف بجناحيه فى وجهيهما .. لوحا بأيديهما فى فراغ الغرفة .. قال الآخر :
- أهملت كل شئ حتى عششت الخفافيش فى غرفتى ..
هدأ الخفاش واستقر فى مكان ما بالحجرة .. تنفسا بهدوء .. عاود يقول:
- سأترك لك كل شئ .. فقط أريد صورتى ..
- أنت انسان عنيد .. لم تعدتصدق .. تعال وانظر..
يمم نحو المكتب.. مد يده فى جوف ظلام أحد الأدراج .. أخرج ورقة مقواه واتجه صوب لمبة الغاز .. انحنى قليلا وفرد الورقة المقواة .. اقترب الآخر منه .. تأمل الصورة :
- ألم أقل لك .. هذه ليست صورتك .. بل صورتى .. أنت بلاشارب .. وهذه الصورة بشارب سميك ..
جذب الصورة بيده .. قال فى حنق وغضب كبيرين :
- أتريد أن تخدعنى .. ملامح رجل الصورة ملامحى تماما..
جذبها الآخر من جديد :

- أنت الذى تخدع نفسك .. هذه صورتى أنا ..

ثم فى صوت متهالك .. قال :

- أرجوك .. لقدأوشك الفجر على الظهور وأنا متعب ..

- ماذا تعنى ..

-لا شئ .. فقط أريدأن ارتاح .. ليتنى ما انتظرتك ..

- وليتنى ما جئت .. لقدأخطأت بمجيئى إلي هنا ..

- كان يجب أن تعرف ذلك من زمن..

قفز ناهضا فى غيظ مكبوت:

- لا.. لن أسمح لك باهانتى أيها الوضيع ..

في عزم وتصميم قال الآخر وهو يشد على الصورة :

- إن لم تخرج الآن سأقتلك ..

- بل أنا الذى يجب أن أقتلك ..

- إلى هذه الدرجة ..

- وأكثر .. لن أتخلى عن صورتى ..

- قلت لك هذه صورتي أنا..

- أيها المخاتل..

وكر عليه حانقا .. استدار الآخر وانفلت من خلف المكتب.. اندفعا معا إلى النضد الدائرى .. كانا يعرفان مكانها تماما.. جذبها أحدهما وهوى بها فى صدر الآخر .. وانطلق الخفاش من مكانه الخبئ بالغرفة وراح يخفق بجناحيه بعنف ويدور دورات لا تستكين ولا تهدأ..

مـومـيـاء الزمـن الآخـر

(١)

تطلع إلى تلك الجثة المسجاة فوق الطاولة الرخامية السطح .. تقاطيع جسد آدمي تبدو واضحة المعالم من بين خيوط الظلام المجدولة في ركن البهو .. انداح شئ قاس في عروقه .. لم يكن حارسا في يوم ما لجثة قادمة من آلاف السنين لتتحداه .. جاء اليوم الذى يكون فيه مسئولا عن جثة لا يعلم جذورها.. من أى زمن أتت لتقف في وجهه في صلف متناه .. قالوا : كن حريصا فنحن في زمن تكاثر فيه اللصوص .. مم يخافون .. أيخافون على هيكل أتى من جب سحيق.. هو لم يأت بمحض ارادته .. انتزعوه من بين الدفء وتركوه يعاني الوحدة والبرودة .. مهما كنت يا مليكى فأنت الآن منسلخ من زمن شمخت فيه أنفك وعلت.. فمتى يأتون ويأخذونك إلى حيث يريدون ...

الآن يحرس جثة حقيقية .. كان يحرس أحجارا منبعجة ومختلفة الأشكال فما الذي تغير .. فتح فاه ليطالبهم باخفاء تلك الجثة .. ارتد صوته مدحورا إلى حلقه .. تراجع إلى الخلف .. توقف.. حدق في الهيكل .. دنا .. انتصب عند رأسه .. تساءل : من أنت..ابتسم بلا سبب ، رفع أصابعه يتلمس النسيج الكتاني الذى غاض لونه ..اقشعر .. انسحبت يده في خوف .. عاد يتحسسه .. راحت أنامله تكتشف بروز الوجه .. الأنف .. محجرى العينين .. نسى خوفه القديم .. اقترب بأنفه .. تشمم رائحة القدم والبلى .. سعل.. رائحة التراب المندى تنتشر في فراغ البهو . تيقظ.. دنا أكثر .. دقق في الوجه المكشوف لعينيه .. اللحم تقدد واستقر على

تجاويف العظم .. لم يستطع أن يتبين الوجه تماما .. الظلام يقترب ببطء ليخفى ما تبقى من الهيكل الآدمى .. تحفزت رغبته .. جر الطاولة الرخامية السطح حتى النافذة ..أزت أرجلها وهى تحتك بأرض البهو .. النافذة مسيجة بقضبان حديدية ... الضوء فى الخارج يأذن بالأفول .. حفنة الضوء انسكبت فوق القدمين الملفوفتين بنسيج خشن.. أدار الرأس مواجهها الضوء المتساقط عند حافة النافذة .. تأمل الوجه مرة أخرى .. شعر بتآلف غريب .. دس عينيه فى اللحم المقدد ..انشرخ شئ ما فى صدره .. هذا الوجه يعرفه تماما .. تحسس الجبهة .. الغضون تراكمت.. رأيت هذا الوجه من قبل .. كالمسلوب اقتربت الأنامل من منتصف الجبهة .. تلمس ذلك الشئ.. جرح قديم فى منتصفها .. سحب يده فى هلع .. وضعها فوق جبهته .. نفس الجرح الغائر فى الجبهة .. تراجع .. حال بينه وبين الفرارحائط البهو الخلفى .. شهق .. وضع يده على فمه ليكتم صيحة أوشكت أن تنفلت .. عيناه تحجرتا على الوجه ، المسجى.. عاد يتلمس كل جزء في الوجه . نفس الأذنين .. الحاجبين الكثيفين .. الجرح القديم منذ الطفولة.. انتابه ذعر قبيح،وهتف بصوت أتى من مكان سحيق بداخله:

- جثتى ..

(٢)

أحقيقة ما تراه عيناك أم أن خوفك العتيق جسد لك تلك الرؤى الطاحنة .. أيعقل أن تكون أنت تلك المومياء الآتية من جوف زمن بعيد.. أجننت ..لكن تنبه .. احترس .. كن يقظا فانى أشتم رائحة شئ خبيث يدبر لك .. جثتك تلك أم جثة انسان آخر ..أجاءوا بها ليتهموك افتراء وزورا ..

أتجرؤ على قتل انسان لا تعرفه ولا يعـرفك .. لا تجنح كثيرا وتنبـه للأمر جيدا .. هناك أعداء فى مكان ما يحفرون لك قبراويضحكون عاليا .. وأنت هنا تواجه مصيرا مبهماً .. عن أى مـصير تتحدث.. ما هى إلا جـثة قديمة ومهتـرئة .. قد تكون غالية الثـمن وهـم يحرصون عليهـا كل الحرص .. لا تتـخاذل .. لا تدع لهم مـنفذا ينفـذون اليك منه .. يريدون الاطاحـة بك .. ولكنهم جـبناء مثلك يطعنون فى الـظهر ويفـرون كالجرذان .. اظـهروا لى ..واجهـونى فلست أهابكم .. عدت لتـرهاتك القديمة وهاهى ذي جـثتك تخترق ناظريك .. هذا الوجه وجهى ... وتلـك الندبة القديمة أحدثها أبوك فى جبـهتك .. كـان ثائرا دوما ولايقـر له قرار.. طوح بيـد الهاون فـاحتك برأسك .. أحدث جـرحا غائرا فى جبـهتك .. نفس الجرح .. فلتـيقن ولا تجعلهم يعبثون بك ..

أوشك الظلام أن يحط رحـاله فى البـهو .. وبدت النافـذة فـوق الجثـة القديمـة كفوهة لحد .. تصـبب عرقا غـزيرا.. شعر بلزوجة .. بدا له البـهو والنافذة وتلك الرائحة الثقيلة البالية كشئ يعشش فى داخله .. لم يكن ذلك المـشهد بـغريب على عـينيه .. أحس بأنه قـد رآه فى يوم ما .. عـشت هذا المكان من قبل وتلـك القضبان الحـديدية تكمن فى قاعك .. فلتـخرج من هنا فورا ولا تتـرك لهم فرصة لقـتلك من جديد .. صـوب مكان الباب فى الحائط اتجه شاردا .. لم يجد للباب أثرا .. دار فى الزوايا فى فزع .. صاح .. لن تقتلوني.. انى باق .. حـاول العثور على البـاب .. واجهته الجـثة من جديد .. تحـسسهـا .. الندبة مسـتقرة فى منتـصف الجبـهة .. أوشك علي البكاء .. قتلوك .. وهأنتـذا ترقد بلا حراك .. بغتة تـحرك الباب.. أطل نور أصفر باهت وقسـم البهو نصفين .. رآه بقامته يحجب النور عنه :

- أما زلت موجودا ...

تنبه .. هذا الرجل يعرف صوته .. صوت صدوق .. تسرب إلى داخله الاطمئنان:

- مازلت موجودا ..

- ذهب الجميع ..

قال وهو يتجه نحوه:

- سأذهب ..

التاع الرجل حين سقط الضوء على وجهه .. وجه مذعور كابى البشرة .. قبل أن ينطق مستطلعا الأمر وجده يتجه نحو النافذة .. يتحرك بطريقة مذهلة .. وقبل أن يخرج منحنى الظهر ورافعايديه أعلى رأسه المنكس .. همس :

- لن أتركها لهم .. جثتي ...

(٣)

منحنى الظهر.. مطأطأ الرأس.. مرفوع القبضتين إلى أعلى.. دخل من الباب الضيق إلى حجرة البدروم .. الباب كان مواربا .. لفحته رائحة عطنة أثارت منخاريه .. عطس بصوت مفاجئ .. ارتجت الجثة فوق ظهره .. سمع صوتا يتساءل :

- من ؟

طرح الجثة فوق منضدة دائرية تتوسط حجرة البدروم..في تثاقل قال:

- ولدك ...

رفع عينيه إلى سقف الحجرة الخشبى :

- أنسيت أن لك ولدا ..

حاول التذكر .. قام ليتأكد .. تفرس وجه الزائر .. أومأ برأسه ولم ينبس .. ازاء برود اللقاءسحب مقعدا وتهالك عليه .. قال الرجل وهو يجلس على المقعد المقابل :

- منذ فترة طويلة لم أرك ..

بصوت غريب عليه قال :

- كيف حالك ؟

- كما ترى .. وأنت ..

هز راسه فى رتابة ولم يحر جوابا .. قال الأب فى صوت خمول :

- عرفت أنهم أخذوك .. متى خرجت ..

- من زمن ..

تطلع إلى جثته الفاصلة بينهما :

- أتعرف .. نسيت ملامحك ..

ارتخى بظهره على ظهر المقعد :

- لم تحاول معرفة ملامحى ..

لوح الأب بيده فى هواء حجرة البدروم .. أثار بضع ذبابات حامت فوق رأسيهما وعادت لتستقر فوق زجاج المصباح المعلق فوق الجثة :

- بذلت قصارى جهدى .. أمك لم تكن تسمح لى ..

- خلافاتكما لم تنته ..

- كنت أحبك وأريدك معى .. لم تكن أمامى حيلة ..

- بثت فى قلبى رعبا ..

طارت الذبابات واستقرت فوق أنف جثته .. ذبها فانطلقت تطن فى آذانهما ..

- أتذكر حين كنت تعانقني عنوة أمام عيونهم وثيابهم الرسمية السوداء .. أحسست بالكره نحوك ..

- رفضت أمك أن أراك إلا فى نفس المكان الكئيب ..

- كانت عيونهم قاسية .. كانت تعريني ..

التقط الأب أنفاسه . واصل :

- تصور .. أمك كانت تخاف عليك منى ..

فى صوت قاطع قال وهو يرنو إلى جثته :

- أنت لم تسع لرؤيتى مرة أخرى ..

- كنت مطرودا من عملى ..

- هربت..

- أمك كانت معك .. كنت سأصبح عالة عليكما ..

انتزع من أعماقه ضحكة .. ثارت على اثرها الذبابات وراحت تحوم فى ذعر :

- تزوجت أمى من آخر..وكفلتني جدتى..بحثت عنك ولكنك هربت ..

تضايق الأب.. قال :

- أصنع لك شايا ..

- لا.. انتظر ..

ثم قال فى صوت يقطر دما :

- ألم تحاول قتلى ..

انتفض الرجل .. عقد ما بين حاجبيه :

- قتلك ..

فى نبرات هادئة أعلن :

- عثرت على جثتى ..

ارتعب الأب .. عادإلى حيث فراشه :

- ماذا حدث لك ..؟

هاهى ذى جثتى ..

وأشار إلى المنضدة الدائرية .. استطرد محذرا

- ولكنى سأجده حتما ..

- من تجد ..

- قاتلى ..

(٤)

مع جثته وجها لوجه ..

حجرة صغيرة ، نافذة تلتصق حافتها العليا بالسقف .. جثته فوق منضدة ارتكزت على الحائط المجاور للباب ..كانت ترقد بلا حراك .. حدق فيها طوال الليل تحت ضوء مصباحه الذابل.. لم يعد يشك في انها جثته .. ولكن غزت عقله أسئلة ضخمة و محيرة .. متى وكيف أصبحت جثة .. ومن ذلك الذى قتلك .. وما الدافع . . بحث عن دافع مقنع .. لم يجد .. موظف بسيط فى هيئة الآثار .. يعمل حارسا لجزء صغير من المتحف .. راتب ضئيل .. لا أرض ..لا عقار.. فمن يجرؤ على قتلك

بلادافع ..ربما تكون قـد لفظت أنفاسك في أحدى نوماتك القـاهرة ..موتا طبيعيـا .. سكته فى القلـب .. انفجار فى الشريان التـاجى .. يجب التأكد .. فتش عن آثار لقطرة دم واحدة عالقة بالنسيج الكتانى .. لا أثر للدماء .. من المـؤكد أن هناك يدا عـبـثت بك دون أن تشعـر وأردتك قـتيـلا.. لا بد من البحث قبل فوات الأوان وإلا ضاع دمك هدرا...

(٥)

رأته منحنى الظهر .. منكس الرأس .. مرفوع القبضتين إلى أعلى..

- ماذا تفعل هنا ؟

قال وهو يسترد أنفاسه اللاهثة :

- كما ترين ..

نظرت حولها فى قلق:

- لا أعرف لماذا تقف فى طريقى ..

حاول أن يرفع وجهه اليها.. رأس جثته يضغط علي ظهره .. يحتفظ به منحنيا:

- لم تكن أمامي حيلة ...

بصوت حازم قالت:

- ماذا تريد ؟

- الحقيقة ..

- تعرفها الآن ..

- هذه الحقيقة لا تعنينى ..

- لا أفهمك ..

- افسحي لى الطريق ..

- أجننت ..

دون أن يعبأ باعتراضها شق طريقه إلى الداخل .. بجوار الباب أرقد جثته برفق :

- بيت رائع ..

طأطأت رأسها.. واصل:

- لم أكن استطيع أن أحقق لك هذا ..

فتحت فمها لتقول شيئا ..قاطعها :

- انتهزت فرصة القبض على وتزوجت بآخر ..

نظر إلى جثته المستندة إلى الحائط بجوار الباب :

- أمى فعلت مثلك .. اختلس أبى من أجلها وطالبت بالانفصال...

صاح بصوت عال :

- أبى كان رجلا فظا ..

- أرجوك قد يصل زوجى ..

فى غضب هائل هتف:

- اتفقتما معا ..

لم تفهم شيئا .. شخصت فى وجهه كثيرا .. تهالك بغتة فوق أقرب مقعد:

- ساعدينى ..

هزت رأسها دهشة :

- قتلني انسان ما ..

بحلقت فى وجهه .. جذب يدها فى عنف .. سحبها حتي الجثة المطروحة علي أرض الصالة :

- أنظرى كيف ترقد جثتي فى استسلام ..

شدت يدها فى خوف حقيقى :

- أخرج ..

- ساعدينى ..

دفعت به إلى الخارج وأغلقت فى وجهه الباب ...

(٦)

مقوس الظهر .. يسير مرفوع الذراعين نحو السماء.. عيناه على أديم الطريق لا تريم .. البناء القديم تساقط عنه طلاؤة .. صعد الدرجات القليلة .. فوق مكتبه وضع جثته .. قال :

- أتذكرنى ..

تفرس الرجل فى وجهه مليا :

- لا أذكر..

- كنت تلميذا عندك ..

أتاه صوت الصبية وهم يتضاحكون خلف نافذة المكتب .. تحسس جثته .. قال الرجل :

- تلاميذى منتشرون فى كل مكان ..

- لكنك تعرفنى حق المعرفة ..

تغضن جبين الرجل ولم ينبس . . قال بلا اهتمام :

- لماذا تكرهنى ..

- أكرهك ..

- كنت تضعنى فى حجرة مظلمة ..

نظر إلى وجه الرجل الذى انكمش حول نفسه :

- كنت أراك مسرورا وأنا أصرخ فزعا من فئران وهمية ..

- ربما كنت تلميذا فاشلا ..

- أنجح دوما ..

- ربما كنت شقيا ..

- لا أتحرك من مكانى ..

ابتسم الرجل .. هتف :

- هناك سبب بالتأكيد..

قال فجأة وبلا مقدمات :

- أكنت تسعى للخلاص منى ..

فردالرجل ذراعيه فى الهواء.. ابتسم من جديد :

- كنت أحبكم كأولادى ..

(٧)

- ظهرت أخيرا ..

قال لاهثا :

- أصبحت ثقيلة ..

فى بطء مال بجذعه .. جعلهـا تسقط فوق الفراش الحديدى في زاوية

الحجرة .. جلس على حافتة .. صدره يعلو ويهبط .. عرقه ينساب.. يحفر مجرى فى تجويف الجرح الغائر فى جبهته :

- أما زلتم تجتمعون .. أو حشتمونى جميعا ..

صرخ الآخر فى وجهه :

- كاذب ..

رفع اليه عينين ضارعتين:

- مازلتم ترتابون..

- وشيت بنا..

- كنت هشا كذبابة ..

- آثرت السلامة ..

أغلق الباب وواصل:

- قبضوا علينا جميعا ..

- ما ذنبى ..

- اختفيت بعد خروجنا .. لو طالتك أيادينا لانتقمنا منك ..

عوى فجأة .. فح قائلا :

- طعنتمونى فى الظهر ..

- لم نعثر عليك ..

جحظت عيناه .. تحفز .. طوق عنقه وراح يردد :

- أيها الجبناء..

(٨)

كان يعرف المقهى جيدا .. لم ينمح من ذاكرته .. هو باق فى ركن مظلم من رأسه ، وذلك الفارس الصدئ يمتطى صهوة فرس صدئ فوق

مكعب يعلو الميدان . يضج الميدان بأصوات مختلطة .. أجيج الترام يخترق رأسه .. وهو يعبرالطريق حاملاجثته .. يلهث كفرس أضناه العدو الطويل بلا هدف .. المقهى خال إلا من بعض الرواد يجتلسون مقاعدهم متفرقين .. جلس عند ركن المقهى وفوق الطوار أسند جثته فوق مقعد عند الجهة الأخري من المنضدة .. ربت علي كتفها ورنا إلى الفارس الصدئ .. ارتد بصره إلى جثته التى بدت سيماء الغضب ترتسم على وجهها .. منذ ذلك الصباح فكر أن ينتهى من هذا الأمر ويدفن جثته .. ولكنه تحير فى اختيار المكان المناسب .. خطر بذهنه نصب الجندى المجهول .. عليه أن يغافل الحارسين ويطوي جثته بداخل ذلك النصب الرخامى.. رفضت جثته الانصياع له .. تشبثت بمكانها .. كيف أدفنك وأنا مازلت أجهل اليد التى نالتك بالأذى .. جاء النادل ، طلب كوبين من الشاى .. دهش النادل وأولاه ظهره .. لم يغب طويلا.. أحضرالكوبين.. تناولهما .. وضع كوبا أمامه والآخر أعطاه لجثته .. توقفت يده بالكوب عند طرف شفته .. حدق فى الماء الأحمراللون رأى دماء حقيقية ترتج داخل الكوب .. طوح بالكوب فى منتصف الطريق .. تناثرت قطرات دمائه على الطوار .. وسارت حتى صنعت مجرى أسفل الطوار ..اختلطت بالتراب وتعلقت بأحذية العابرين..وهتف فى غضب:

- أيها الجبناء .. أنتم تدوسون على دماء جثتى ..

لم يلتفت اليه أحد .. واصلوا سيرهم .. لمح رواد المقهى وهم يشربون دماءه .. فزع حمل جثته واخترق الطريق لا يلوى على شئ...

تـابـوت الأحـلام المصلـوبة

فى استنامه صعدت الدرجات الرخامية العريضة .. لم يرحب بى الحارس عند الباب الضخم .. أبرزت له الورقة المطوية فى اهمال .. لم تنفرج شفتاه عن ابتسامة ..همهم بكلمات مبهمة .. أشار لى بجهامة نحو دهليز نصف مظلم .. لم أعبأ .. أوليته ظهرى وخضت اختناق الدهليز نصف المظلم .. لا نافذة .. لكن هناك ضوءاً خافتا يتسلل من مكان مجهول ينير الجدارين المرتفعين على جانبى الدهليز .. بدا السقف عاليا حتى خلت أنه يطير بعيدا عن الأرض .. أحسست برهبة مباغتة .. لعنت الجميع .. لعنت ذلك الرجل الذى يدعى دائما الفطنة والنباهة وأنه قادر على فك طلاسم الرموز التى تطويها سطورى ..

وتساءلت فى حيرة وقدماى فى جوف الدهليز نصف المظلم .. لماذا أنا هنا الآن .. وتحشرجت الورقة المطوية فى اهمال بين أصابعى .. تجيبنى فى سخرية لاذعة ..أنت تلبى الأمر بالنقل إلى هذا المكان الكئيب .. لماذا وافقت .. كان من الممكن أن ترفض .. أن تصرخ فى وجه ذلك الرجل الغبى السحنة .. ولكن أنت لاتملك من أمر نفسك شيئا ... أم ظننت أنك تستطيع أن تقلب الدنيا رأسا على عقب.. أو لعلك تظن نفسك موظفا حقيقيا.. تبا لعجزك .. وتلك الوصمة القاهرة فى جبين مستقبلك .. لماذا تنسى ماضيك الساحق .. أنت لاتملك شهادة أيا كان نوعها .. متوسطة أو جامعية .. لم تحصل فى حياتك على تقديرما، بسحبة قلم تجد نفسك على قارعة الطريق .. حسبك أنهم أفسحوا لك مكانا بينهم واعتبروك واحدا منهم .. ولكن عنادك القديم يأبى أن تعيش فى هناءة بال .. يقلقك دائما كالدمل الطافح بالصديد ..

- عمن تبحث ؟

ارتعبت أوصالى وأنا أواجه عينين ترابيتين ..

- المدير..

فى صمت رفع ذراعا متحجرة وأشار إلى باب كالح اللون وأولانى ظهره .. تسمرت قدماى.. وأحسست أن آلاف السلاسل تشد قدمى إلى الخلف .. واعترتنى غصة حادة مباغتة وتهاوت كل قدرة لى على المقاومة .. هصرت الورقة المطوية فى اهمال بين أصابعى .. وغامت الأشياء حولى .. تحولت الأعمدة التى انتصبت إلى جانبى فجأة إلى رماح حادة النصال . انغرست فى قلبى. تداعت أنفاسي .. هاأنتذا تقدم نحو مجهول آخر.. عد إلى الوراء وليكن مصيرك قارعة الطريق .. لاتعبأ بزوجك الصفراء الأسنان أو أولادك الذين يصخبون من حولك .. لا تهتم بنظرة أبيك الشيخ..كم كانت نظراته اليك قاهرة ومنفرة.. ودائما بين ترددك يقفز وجهها الملائكى الذى غاب فجأة عن فلك حياتك..تبثنى نفحة من الأمل واستمرارفى البقاء وصوتها الخافت يدغدغ حواسي ..تهمس دائما بكلمات تبث فى قلبى رغبة الإطاحة بكل العوائق ..

- لا تقيد فكرك ..

قديما كنت أحسدها .. ستمتلك فى يوم ما حرمت منه أبدا .. ستنال شهادة جامعية وأنت يكفيك أن تسحب خلفك عربة أبيك بخضرواته البالية فى الأزقة الملتوية :

- أنا أهيم بالكتب ..

- لماذا لا تواصل تعليمك ..

- بتر أبي تعليمي لكى أساعده فى العمل ..

لازلت تذكر ابتسامتها الوضيئة .. وقولها القديم يترك أحاسيس فائرة داخلك ..

- يعجبنى اصرارك على التعليم ..

- لى أحلام كبيرة ..

ورنت ضحكتها فى أذنى .. هأنتذا تنكص على عقبيك.. وجلجلة ضحكتها فى الدهليز نصف المظلم .. لم ترق لى ضحكتها .. وشعرت بألم ممض يعتصرقلبي .. لا تتخلى عنى .. أنا فى حاجة اليك .. لكنها منذ زمن بعيد غادرتك ولم تعد ترى وجهها النورانى ..

ترددت قبل أن تطرق الباب .. أمازلت تواصل مسيرك نحو الهاوية .. يريدون أبعادك .. يلفظونك لفظ النواة ..

- لاتتخل عما تؤمن به ..

صوتها الرنان يخترق مسامعى.. ولكنك أنت أيضافى لحظة من لحظات احتياجى اليك تخليت عنى .. بحثت عنك .. واختليت بنفسى ألتهم تلك الكتب التى كنت تمنحينها لى ..

ويدفعه قوية للباب تهاون قلبى وكان منتصبا بوجهه الشائخ .. لوح فى وجهى:

- أمازلت تقرأ أيها الكسول .. ماذا تجديك القراءة .. هل تظن أنك ستصبح موظفا فى الحكومة . .

وبزعقة من عقيرته الغليظة نهضت خلفه..

ارتدت طرقتى على الباب الكالح كدوى الطبول .. وارتجف قلبى.. حنيما وطئت قدماى الباب اشتممت رائحة غريبة ممزوجة برائحة التراب المندى.. وكان هناك خلف مكتبه عندما رفع ذراعه يشيرلى بالجلوس على المقعد المنتصب أمام المكتب .. لمحت ذرات من الغبار تسبح فى الهواء تحت ضوء الشعاع المتسلل من النافذة عن يساره .. وحين صوبت عينى فوق عينيه لمحت نفس العينين الترابيتى اللون .. وقد ضاع السواد في اللون الترابى.. ابتسم ابتسامة غريبة .. قال بصوت كرجع الصدى :

– موظف جديد ..

أو مأت له برأسى :

– أهلا ..

أحسست بفتور صوته وهو يرحب بى ..وحينما ناولته الورقة المطوية باهمال .. تطلع إلى سطورها وعادت نفس ابتسامته المقيتة .. همس:

– آسف أشد الأسف .. لقد امتلأت حجرتنا بالعاملين ..

وشملتنى فرحة طاغية .. لويرفض سأعود إلى مكانى القديم .. ولكنه همس :

– انتظر ريثما نخلى لك مكانا ..

نهض من خلف مكتبه .. أثار زوبعة من الأتربة حنيما خطا نحوى .. زكمت أنفى فسعلت .. قال :

– سرعان ما تعتاد ..

وقهقه بضحكات رنانة صاخبة كالطرقات النحاسية

قال صديقى فى العمل الآخر:

- هل كنت تأمل من كل هذا وظيفة مرموقة ..

قلت :

- لا .. ولكن أليس من حقى أن أحظى بالاحترام ..

قال ممازحاً :

- الاحترام شئ نسبى ربما كان حصولك على شهادة يجنبك مشقة البحث عن الاحترام والوظيفة أيضا..

قلت فى شبه توسل :

- صدقنى لم تكن الوظيفة بغيتى ..

ولعنت أبى فى قرارة نفسى لبتره تعليمي ...

- أذن لماذا قبلت الوظيفة ...

لم أنبس ، ضحك قائلا :

- حصولك على وظيفة يتطلب ليونة الرأى ..

قلت فى غضب:

- فليطئوا فوق جثثنا إن كان ذلك يريحهم..

دعينى أحلق فى عينيك .. أسبح فى بحرهما العميق الغور .. ولكنى كنت أعرف أن طريقك كان واضحا من البداية .. وطريقى كان مخالفا .. كنا طريقين مختلفين .. لم نلتق أبدا .. ويأتينى صوتك الشجى من عالم الغربة فيحلق قلبى كطير السمان حين يلتقط أنفاسه ليواصل طريقا يخوضه ولم ينم على جسده الزغب بعد ..

- ماذا تريد أن تصنع ..

أشرق وجهها بضحكة صافية .. بلعت كلماتى .. قالت :

- اتريدأن تصبح مثل مكسيم جوركى ..

لم أنبس فقالت :

- كان طريقه محفوفا بالمخاطر ..

وشق صوته النحاسى أذنى .. ولا زالت تلك الابتسامة تكلل غباء سحنته :

- أنتم أيها الجهلاء .. ماذا تظنون أنفسكم .. لكم العالم اجمع ونحن الفتات

وصرخ فى وجهى :

- أخرج من مكتبى ..

تداعيت تحت أول هبة هواء.. ورأيتك بعيدة .. بعيدة .. ولمحت على عينيك سحابة دامعة .. لست بقادرعلى شئ .. أأعود إلى أبى الذى هجرته منذ أعوام .. يأمرنى فأطيع على مضض وأسحب خلفى عربة الخضروات العفنة ..

قال الرجل الغبى السحنة وهو يشعل سيجارة :

- جميل أن تكون لك طريقتك فى التعبير عن آرائك .. ولكنك تتعامل معنا .. ومن حقنا أن نختار ما يوافق آراءنا ..

هتف فى شبه رجاء:

- ولكن سيادتك ترفض كل ما أكتب ..

قال وهو ينفث دخان سيجارته في وجهى :

- أليس من حقى أن أرفض ..

قلت فى أسى :

- هذا حقك الطبيعى .. ولكن من حق أعمالى أن تحظى بالرعاية ..

سدد في وجهى سبابته الغليظة :

- تتهمنى بالإهمال..

قلت فى تردد :

- لا ..

قاطعنى فى عنف :

- حذرتك من قبل أكثر من مرة .. وأنا لا أحب تطاول الألسنة ..

انسحبت مسحوقا .. واغلقت خلفى الباب في لطف متزايد ..

حدجتنى المرأة الصفراء الأسنان .. قالت:

- ازدادت احتياجات البيت ..

تلبسنى الغضب ، فصحت فى ضيق :

- هل أذبح نفسى ..

قالت وهى لازالت تكشف عن أسنانها الصفراء :

- لا .. ولكنك نسيتنا .. نسيت أولادك .. هل أنجبت بطونا لا تستسيغ الطعام ..

قلت فى رجاء :

- بالله عليك ماذا بمقدورى أن أصنع . . أهبك راتبى فماذا أصنع..

- تستطيع أن تساعد أباك في عمله وستنال جهد مساعدتك له ..

غمغمت لنفسى:

- ذلك المأفون بتر تعليمى وزوجنى بجاهلة ..

قالت :

- ماذا قلت ؟

- أنت لا تفهمين شيئا أنا لا أستطيع أن أجارى أبى فى غش زبائنه

- وليكن .. سيزاد ربحكما..

كدت أضرب رأسى فى الحائط :

- ألا تدعيني أواصل قراءتى ..

- هل قراءتك كفيلة بسد آلام بطوننا..

صحت فى غضب :

- اللعنة عليكم وعلى بطونكم ..

بنفس الجهامة استقبلنى الحارس عند الباب .. زم شفتيه وأشاح بوجهه إلى الطريق .. لم أعبأ .. خضت فى الدهليز نصف المظلم .. طرقت الباب الكالح .. استقبلتنى العينان الترابيتان :

- أبشر .. وجدنا لك مكانا ..

تغضن قلبى .. لكنى سرت خلفه .. عبرنا دهليزا إلى دهليز آخر .. مررنا من حجرة إلى أخرى.. وعند باب مفتوح المصراعين توقفنا.. هلل قائلا:

- هنا مكانك .. ليس لدينا غيره على الأقل فى هذا الوقت ..

أدركت اللعبة حينما ألقيت نظرة إلى الداخل .. تلك التماثيل الصماء الباهتة الألوان المتراصة فى كل ركن من البهو الواسع .. أذرعة مبتورة ورءوس تتوسد الأرض وأجساد مجهضة .. عند الباب كان مكتبى المنتظر ينزوي في الركن فى خجل غريب :

- نتمنى لك التوفيق ..

غادرنى الرجل دون كلمة أخرى ..

أنت هنا وحدك مع هذه الكائنات التعسة .. فلتضحك ملء شدقيك .. أهذه هى النهاية .. رائحة التراب المندى سوف تخمد أنفاسك سريعا ..

ولمحت ذلك الزنديق الغبي السحنة يرقص أمام ناظرى .. يضحك فى ارتياح .. ضحكاته تصدع المكان .. أى موازين مقلوبة تلك..ولكن هالنى أن أرى الرؤس الموسدة الأرض والأجساد المجهضة تضحك.. ركضت سريعا ..دفعت الباب الكالح .. صرخت فيه:

– هل أصبح في النهاية حارسا لمخزن آثار..

ضحك من جديد.. حدجنى بعينيه الترابيتين .. لاحظت التراب المتصاعدمن فيه اثركل كلمة يفوه بها:

– هدئ من روعك ..

عاودت أصرخ من جديد:

– كيف أهدأ ..

– هذه الوظيفة تناسبك .. أم كنت تريد أن أبدل بك الحارس ..

أطرقت فواصل يقول :

– ماذا كنت تظن اذن ..

صحت فى غضب :

– ولكن أنت لا تعرفنى حقيقة ..

– ماذا أعرف ..

– أنا ..

قاطعنى فى حدة :

– لا تسرد لى ماضيا أفل من وقت.. وهذه الوظيفة ما نملكها الآن ..

ران بيننا صمت .. تنفست الأتربة .. قال فى انتصار:

– ما رأيك؟

سحبت الباب خلفى .. وعدت ...

رحلة الطقوس الأخيرة

رفع نحوى عينين زجاجيتين .. عكستا ضوء المصباح المنزلق من ثقب في سقف الحجرة .. شملتني ارتجافة اهتز لها جسدي .. لم يعبأ بذلك الرعب الذي توطن داخلى منذ طرأت برأسي فكرة البحث عن مثواها الأخير.. نكس وجهه مرة أخرى ، ودفن عينيه الزجاجيتين بين دفتي ذلك الدفتر الكبير الراقد فوق مكتب كالح الطلاء .. ابتلع الدفتر رأسه تماما .. في بطء متآكل راح يطوى الصفحات المحترقة الأطراف .. يهتز رأسه يأسا كلما انطوت صفحة بين أصابعه .. عا وعكس ضوء المصباح بعينيه .. اخترق الضوء قاع رأسي فأجفلت .. رفت أهدابي ولم أعد أتحقق شيئا أمامي.. فح في أذني صوتاً نخره السوس :

- قلت .. ما اسمها ؟

كررت على مسامعه اسمها .. فانكفأ يدفن وجهه بين دفتي الدفترالكبير.. لم تمض لحظات حتي رجع بظهره إلى الوراء .. فتح فاه فلم أر سوى فجوة عميقة الغور.. تنفس فلفحتني رائحة كريهة .. شعر بنفوري فقال متسائلا :

- هل أنت واثق ؟

رددت في شك حقيقي :

- كل الثقة ..

نفث رائحة فمه الكريهة وقال :

- لعل اسمها قد سقط سهوا ..

ارتعب قلبي .. بحلقت في وجهه الذي لم يعكس تعبيرا واحدا ينم عن آسفه :

- كيف حدث هذا؟

ابتسم وقال فى برود:

- رأيت بعينيك .. تصفحت الدفتر ورقة ورقة ..

انتفض خوفى .. ولكنه نهض واقفا خلف مكتبه .. هتف فى نفس صوته الذى نخره السوس :

- لاتجزع .. ليس أمامنا إلا أن نذهب إلى هناك .. عسى أن نستدل عليها..

خطواته فوق الطريق المترب واسعة .. ألهث خلفه .. أحاول اللحاق بخطواته المتسعة .. يتصاعد صوت لهاثى عاليا .. ظل طوال الطريق إلى الجبانة يثرثر دون أن يلتفت إلى .. كلماته المتشابكة يقذف بها الهواء بعيدا .. تحدث عن الآخرة ودار الفناء بحياد غريب.. لم يهتز صوته .. ابتسم وهو يؤكد كم من الموتى حملهم فوق منكبيه .. وقال أن الدنيا لا تساوي قلامة ظفر.. أهز رأسى تجاويا وهو لم يهتم بردودفعلى نحوما يقول .. توقف .. قال :

- ناولنى سيجارة ..

تذكرت منذ الصباح لم أشعل سيجارة واحدة .. دسست يدى فى جيوبى أبحث عن علبة السجائر وجدتها خاوية فقذفت بها فى الهواء .. .. عادت لتستقر تحت قدميه .. قال دون أن يلتفت اليها:

- لا عليك .. اعتقد أننى احتفظ بسجائرى ..

أخرج علبته .. مد إلى بواحدة .. اشعلها لى .. أخذ يسحب دخانها بتلذذ غريب .. عاودا السير فوق الطريق المترب .. دخلت خلفه ممرا ضيقا

بين بناءين من دور واحد .. اكتشفت أنهما مقبرتان.. أصدر صوتا غريبامن منخاريه ثم قذف بمخاطه فوق الأرض المتربة وواصل سيره بلا اجفال .. تهادى الينا صوت نباح كلب .. التفت نحوى فرأى كمية الرعب التى عششت فوق تقاطيع وجهى .. ابتسم وهتف مع دخان سيجارته :

- لا عليك .. الكلاب هنا كثيرة ..

انفتح الممر الترابى على صفوف من المقابر منتشرة حتى مرمى البصر . توقف قليلا.. أخذ نفسا عميقا من سيجارته وطوح بقاياها فى الهواء.. بلا ارادة فعلت مثله..أشار إلى المدى الفسيح أمامنا..وصاح بصوته المسوس:

- أنها ترقد فى ركن ما من هذا المكان ..

ثم قال فى نفاد صبر :

- أن مهمتنا عسيرة ..

رنوت اليه فأدرك نظرة التوسل التى شعت من عينى:

- لاعليك ..

ورحنا نشق طريقنا بين صفوف المقابر وعيوننا تمسح اللوحات الرخامية .. أدارظهره فجأة :

- قلت لى .. ما اسمها ؟

همست مرة أخرى بذلك الاسم الذى سرعان ما يتطاير من ذهنه .. وجعل يبحث عن اسمها فوق احدى اللوحات الرخامية .. أثارت أقدامنا التراب فتصاعد نحو أنفينا.. سعلت بشدة .. لم يلتفت.. واصل خطواته الواسعة .. تجمعت بعض كلاب ضالة ونبحت فى وجهينا .. قذفها

بحجـرفتـفرقت خلف المقـابر.. سب آباءها ومسح بـمنديله الـباهت اللون وجهه وصوب إلى عينيه الزجاجيتين :

- أنت تجعل مهمتنا صعبة وعسيرة ...

ثم فى صوته المسوس :

- أنك تجهل حتى يوم دفنها..

حاولت أن أفهمـه أننى كنت بعيداً حين قام بدفنها وأننى قد أكـون سببا من أسبـاب موتهـا المفـاجئ... وأن شيـئا ما فى نـفسى يثيـر داخلى أسى وحزنا وتأنيبا كبيرا .. أردت أن أخبـره بما يطويه بحثي عنها من رغبة ما فى نفسى ..أريد على الأقل أن أعرف البقعة التى استقر فيها جسدها الواهن .. لعلى أكفـرعن غيابى وتقاعـسى عن تشييعـها حتى مثواها الأخـير.. كنت أحاول أن انتحل الأعذار الواهية ..

نز جسدى عرقا .. بدأت أشعر بلزوجة عنقي .. انتابنى ضيق من تراكم الغبـار حولنا .. فكرت فى التخلي عن فكرة البـحث عن مثواها الأخـير .. واجهنى بوجه شرس :

- لـم نترك قبرا .. فأين تراها تكون ..

تسرب إلى نفسى يأس مرير:

- هذه مهمتك ..

لوح بذارعيه فى الهواء:

- ولكنك تسد السبل فى وجوهنا..

وقفنا كنقطتين وحيدتين فـى وسط هذا الخلاء الشاسع .. بغتة أعلن فى حبور غريب:

- لا تيأس .. ثق أننا سنعثر على مثواها الأخير ..

****

تابعت ظله الممتد ورائى .. كان طويلا .. لم ألحظ ذلك من قبل .. لكنني كنت أبدو كقزم ضئيل .. اجتاحنى رعب.. عاودت التفكيرفى التخلى عن البحث عن مثواها الأخير، استقر رأيى ألا أستعين بأحد.. أقنعنى بأن معلوماتى الضيئلة لن تتيح لنا فرصة العثور على مثواها وأكد لى أن شيخهم لديه فراسة شديدة فى معرفة موتاه .. فهو يستطيع أن يحدد معالم الوجه والجسد .. يستطيع أن يحدد يوم الوفاة ومن دفنها بيديه .. وقال بنفس الصوت المشبع برائحة فمه ..انه لا سبيل أمامنا.

رأيت ظله يدلف نحو زقاق ضيق .. تسارعت أنفاسي..اشتممت رائحة غريبة ومنفرة .. قلت ربما تفوح من ثوبه الذى لم يخلعه منذ اليوم الأول فى مشوار بحثنا الممض .. لمحته يقترب من رجل يقتعد كرسيا خرزانيا أمام باب دارقصير .. بش الرجل لمرآه .. اكتفى بأن ابتسم له ابتسامة ضيقة .. اقترب من رأسه وأسر له بشئ.. أشار لى الرجل، دنوت فى وجل .. حييته فلم يرد تحيتى.. ارتعشت أوصالى ووقفت كتمثال.. نهض فجأة فانخلع قلبى .. أعطانى ظهره ودخل من باب البيت المتناهي فى القصر .. أحسست وأنا أتبعهما أننى داخل إلى قبرى .. كانت الطرقة طويلة ومتربة الأرضية وهناك بعض خيوط العنكبوت تتدلى من الأركان.. سمعت أصواتا متداخلة فزعت لدخولنا.. ولمحت أشباحا يختلط بعضها بالبعض ثم تختفى داخل أبواب مفغورة الأفواه فى الطرقة الطويلة .. سعل الرجل ودخل من باب جانبى شبه مظلم .. ترددت طويلا ولكن صاحب العينين الزجاجيتين رشقنى بنظرة صارمة .. طأطأت رأسى ودخلت خلفهما .. الغرفة واسعة .. حصيرة تحت أقدامى .. استقبلتنى رائحة القلم .. رأيت الرجل الذى اعتقد أنه شيخهم قد جلس فوق حشية تتصدر الغرفة

.. الغرفة خالية إلا من بعض أشياءأجهل وظيفتها .. لا أدرى لماذا اعتورنى خوف كبير .. رحت أبحث عن ريقى فى فمى الجاف فلم أعثر الا على طعم التراب المخلوط بنفس الرائحة .. دون صوت جلس صاحب العينين الزجاجيتين وامرنى أن أقترب منهما .. وضع حشية فى مواجهتهما فجلست فى حذر.. قال الشيخ :

- موقفك صعب ويحتاج رأسا لا يعكره شئ ..

ثم زعق بصوت محتضرفأقبلت من الباب امرأة بدينة .. جاءت تترجرج فى سيرها .. بلا أدنى التفاتة انحنت تلتقط الأشياء الموضوعة فى ركن الغرفة .. قال :

- جهزى المعلوم ..

تسلطت على رأسى رؤى غريبة وقررت أن انهض من فورى وأقوم خارجا .. نظر إلي صاحب العينين الزجاجيتين .. أدركت أنه قرأ أفكارى فتسمرت فوق الحشية .. سمعت صوت طفل يبكى فشعرت بالاطمئنان .. تبعه صوت امرأة تنهره عن البكاء.. حدست بأنها المرأة البدينة التى دخلت الغرفة منذ لحظات قليلة .. هزصاحب العينين الزجاجيتين رأسه وقال فى مودة :

- ثق أننا سنعثر لك على مثواها الأخير..

كنت قد نسيت لماذا أنا أجلس أمام هذين الرجلين تماما .. ونسيتها بين خوفى الذى أخذ يتسرب إلى كل جزء من جسدى ..

اقتحمت الغرفة رائحة شئ يحترق .. لمحت المرأة البدينة تقترب من

ذلك الرجل الشيخ وتضع أمامه صينية تتأجج فوقها جمرات من النيران.. أشارلها بالخروج فلبت طائعة .. نهض صاحب العينين الزجاجيتين وأحضر ما يشبه الجوزة .. أعد جمرات النيران ثم وضعها فوق قمة الجوزة بماشة حديدية .. جذب نفسا من طرف عود الغاب المثبت فى قاعدتها ثم ناولها للشيخ دون أن يفوه بكلمة واحدة . دس الشيخ طرف الغاب فى فيه .. كانت الغرفة شبه مظلمة .. وهناك نافذة حديدية خلف ظهريهما لا تتيح إلا لقدر ضئيل من ضوء النهاربالتسرب إلى داخل الغرفة .. تحلقت حلقات من الدخان بدت وردية في بداية الأمر ، بغتته ودون توقع فتح الشيخ فاه ليقول شيئا .. بهرنى صف الأسنان الذهبية التى التمعت تحت ضوء النافذة الواهن .. قال :

- ما صلتك بها ؟

قلت وأنا أتحاشى النظر اليه :

- حميمة ..

شد نفسا وقال :

- صفها لى ..

تحيرت كيف أصفها له .. فمنذ وقت بعيد لم أرها .. هل أصبحت سمينة ومترهلة الجسد أم احتفظت بجسدها الواهن الضعيف .. هل اشتد عودها أم هزل .. لكننى قلت للشيخ :

- امرأة ذات قلب عطوف ..

كنت أعرف أن قلبها هو الوحيد الذى لم تغيره الأيام والسنون..

برقت أسنانه فى فراغ الغرفة وابتسم ابتسامة لم أعرف فحواها .. رأيته

يجذب الأنفاس بحرارة غريبة على شيخ مثله .. والظلام الباهت لم يتح لى فرصة تقدير عمره .. هل لا يزال يحتفظ بشبابه أم جرت عليه الأيام مجراها .. نظر إلى وتساءل :

- أكانت عاقرا ؟

قلت وأنا فى دهشة من غرابة أسئلته وتأكد لى أنه ربما يكون معتوها :

- كانت ولودا..

تساءل من جديد :

- أكانت تلد ذكورا أم أناثا ..؟

قلت فى خوف حقيقى :

- ذكورا ..

نفخ فى وجهى دخان جوزته وقال :

- أهم كانوا رجالا أم أنصاف رجال ..

حملقت فى وجهه ..كان وجهه هادئا .. قلت :

- لا أدرى ..

هز رأسه فى ضيق وقال أن على أن أتذكر كل شئ فذلك سيسهل المهمة .. وكنت أريد أن أقول ماذا يهم أن تعرف أن كانوا رجالا أم انصاف رجال .. ذكوراً أم اناثا.. نعاجا أم آدميين . رأيت الأمر كدعابة باهتة ولا معنى لها وحاولت أن أقوم خارجا.. فغر فاه وبرقت أسنانه الذهبية وحدجنى بنظرات كانت تقول ما دمت جئت برجليك فلا ارادة لك فى الخروج من هنا .. الارادة هنا ارادتنا .. قال كطلق نارى :

- أمتأكد من موتها؟

قلت وقد اختلطت الأشياء فى رأسى :

- كل التأكيد..

- أتعرف يوم وفاتها ؟

وأنا اتحاشى النظر إلى أسنانه الذهبية قلت:

- صدقنى لا أعرف شيئا عن وفاتها.. ربما تكون قد ماتت منذ أيام أومنذ شهورأو سنوات .. لست أعرف بالتأكيد ..

نفخ الدخان فى فراغ الغرفة وكان لونه يقترب من الزرقة مما جعل الجو حولنا غريبا .. سمعت ضحكة جاءت من الطرقة الخارجية .. التفت إلى الشيخ مرة أخرى وتساءل :

- ألا يحتمل أن تكون قدقتلت؟

بهت.. نظرت فى وجهه .. كان يدخن .. حولت نظرى إلى صاحب العينين الزجاجيتين مستغيثا.. كان يتابع حركة الغاب بين شفتى الشيخ .. هتفت من أعماقى :

- مستحيل ..

زعق فى وجهى هذه المرة :

- ما أدراك وأنت غير متأكد من شئ..

تداخلت الرؤى .. وجدته يدفع بطرف الغاب نحوى :

- خذ .. يجب أن يكون ذهنك صافيا ..

بيد مرتعشة تناولت الجوزة من يده..وضعت طرف الغاب بين شفتى..

****

لم تصبنى دهشة مما رأيت...

رأيت نفسي عاريا تماما كما ولدتني أمي.. وكنت فى الغرفة وحدي.. راقد فوق لوح خشبى تحت النافذة الحديدية .. ورأيت فى السقف مصباحا متدليا يتأرجح يمينا ويسارا . بحثت عن الرجل ذى العينين الزجاجيتين بعينى .. لم يكن له وجود داخل الغرفة .. وكانت تلك الرائحة المميزة تفوح من مكان لا أدرى موضعه .. وهناك ثمة دخان يلتصق بالسقف وكأنه قطع من السحب تهيم فى السماء.. حاولت أن أصرخ ولكن صرختى ضاعت فى فمى .. قلت لنفسى لماذا تنام عاريا هكذا .. فكرت فى النهوض .. جسدى كان خاوياكقطعة قطن مندوف .. كنت يقظا تماما .. ناديت الرجل فدوى صوتى فى فراغ الغرفة رنوت إلى الباب ..كان مغلقا .. شعرت بأننى فى مأزق حقيقى .. ماذا حدث لى بالضبط .. تذكرت أننى كنت أبحث عن مثواها الأخير .. ولكن ما الذى جاءبى إلى هنا .. لم يطل بى تفكيرى إذ انفتح الباب ودخلت امرأة بدينة..لم استبن ملامحها تماما.. وقفت عند قدمى .. لم تخجل من عريى ..ولم أخجل أنا .. بل ظللت متوسدا اللوح الخشبى ..قلت لها :

- أين صاحب العينين الزجاجيتين ؟

ضحكت ضحكة أحسست أن سقف الغرفة سينهار لها .. قالت:

- انتهى لتوه من غسلك ..

فغرت فاهى دهشة :

- غسلى ..

قالت دون أن تخجل :

- بعد قليل سيحضران لحملك إلى هناك ..

أعطتنى ظهرها وذهبت إلى باب الغرفة .. فتحته إلى أقصى اتساع .. حين عادت وجدت على رأسها وجها ذا ملامح ليست غريبة على .. دققت النظرفى ملامحها .. صعقت .. حاولت أن أقوم لآخذها بين ذراعى .. أخيرا عثرت عليها ..قلت فى صوت لا أرى كيف خرج من أعماقى:

- أنت ..

كادت الدموع تطفر من عينى:

- بحثت عنك طويلا.. أين كنت ؟

دوت ضاحكة .. هالنى ضحكها .. كان من المفروض أن تعانقنى فمنذ سنوات طويلة لم أرها ولم ترنى .. قلت وفرحة طاغية تهز كيانى :

- أخيرا أنت ..

تنبهت أننى مازلت فى تلك الغرفة القميئة فتساءلت:

- ماذاتفعلين هنا ؟

عوت ضاحكة من جديد :

- وماذا تفعل أنت ؟

- كنت أبحث عنك ..

دخل الرجل الشيخ من الباب وقال لها فى مودة :

- هل انتهيت؟

وهى تضع يدها فوق كتفيه همست :

- هو جاهز الآن ..

نادى بأعلى صوته .. حضربعض الرجال لم أرهم من قبل.. انحنوا

تحت اشارة من يده نحوى ورفعونى وأنا فوق اللوح الخشبى علي أعناقهم ..جاءنى ضحكها من خلف ظهرى .. صرخت فيها :

- لماذا تفعلين بى هذا ..

حاولت أن أقفز من فوق اللوح الخشبى .. لم أستطع كأننى مكبل بسلاسل حديدية .. خرجوا بى من الباب رأيتها تعانق الرجل الشيخ .. فصرخت ، وصرخت ..

****

هزتنى يد فانتفضت كجرو، فتحت عينى على أسنان ذهبية نضيدة :

- هل أنت على استعداد ؟

فركت عينى فقد ضايقنى ضوء المصباح برغم ضعفه الهزيل تساءلت:

- علام الاستعداد ؟

لمحت نظرات دهشة على وجه الرجل .. أتانى صوت من الجانب الآخرللغرفة :

- أنسيت من تبحث عن قبرها ؟

تذكرت فجأة كل شئ .. نهضت قافزا فرأيت الرجل ذا العينين الزجاجيتين يستند إلى الحائط متقرفصا كقط..

.. حين استرددت وعى دخلت المرأة البدنية .. رحت أبحلق فى وجهها ... لم تكن هى بأية حال .. حاولت أن أتذكرتلك اللحظات المريرة التى مرت على .. بدت خيوط ما حدث تتجمع فى رأسى.. عاودنى الخوف فانكمشت .. ودون توقع منى تساءلت :

- أهبط الليل ؟

لوح الرجل صاحب الاسنان الذهبية :

- لقد انتصف ..

انتفضت مرة أخرى وقلت في هلع :

- يجب أن أذهب حالا..

صرخ الرجل ذو العينين الزجاجيتين :

- لماذا جئت اذن .. ؟

قلت فى نبرة توسل :

- لقد ذهب الوقت..

قال الشيخ:

- هذاأفضل وقت للعثور على قبرها ..

قال الرجل المقرفص عند الحائط :

- مقابر الصدقة ليست بعيدة ..

فوجئت .. عدت أبحلق فى وجهيهما :

- الصدقة ..

قال الشيخ :

- ماذا كنت تظن .. لقد بحثنا في كل مقابر المدينة ..

تساءلت فى شك من كل ما يجرى أمامى :

- وهل نعثر عليها فى مقابرالصدقة ..

فى صوت واثق :

- بالتأكيد ..

داخلنى ريب من هـذين الرجلين .. خـاصـة كـبيـرهم أو شـيخـهم ..

وحدست أن فى الأمر خدعـة ما أجهل تدابيرها.. لقدمنحتـهم كل ما معى من أجل البحث عن مـثواها الأخيـر . فماذا يدبران لى .. هل يخـدعانك أم أنك تدورفى حلقة مـفرغة..عليك بالـعودة الآن والتخلى عن البـحث عنها ..فى صوت مرتعش همست :

- فلنؤجل هذا إلى الصباح ..

لم أدع لهما فرصة .. دفعت الباب وخرجت ..

****

فى ذلك الصباح ذهبت اليـه .. لم يبرح مقعده الـخيزرانى . لم يبش فى وجهى ..قال :

- أنت مرة أخرى ..

قلت فى ثقة :

- جئت من أجل البحث عن مثواها الأخير ..

حدجنى بنظرات ملتهبة وقال فى نفس صوته الذى قابلنى به البارحة:

- موقفك صعب ويحتاج رأسا لا يعكره شئ ..

نهض عن كـرسـيـه الخيـزرانى ودخل من باب الـبيـت المـتناهى فى القصر. تبعته وهو يدخل الطرقـة الطويلة .. أحسست وأنا أتبعه أننى داخل إلى قبرى .. كـانت الطرقة طويلة ومتربة .. وهناك بعض خـيوط العنكبوت تتدلى من الأركـان .. سمعت أصواتا متداخلة فزعت لدخـولنا.. ولمحت أشباحـا يختلط بعضها بالبـعض ثم تختفى داخل أبواب مفـغورة الأفواه .. سعل الرجل ودخل من باب جانبى شبه مظلم .. لكننى لم أتردد..

دخلت خلفه لا ألوى على شئ ..


الفـــــــأر

فجأة لمحته بالقرب من دواسة المكتب .. استدار فى بطء .. وهو يرفع منخاريه ليتشمم الهواء.. وقف أمام صف الدوسيهات الموضوعة بعناية فائقة داخل الرف الأسفل لدولاب قصير القامة يمين المكتب . التفت إلى الخلف .. وقعت عيناه الزئبقيتان على عيني .. ارتعشت عيناى .. لم تطرف عيناه ..عاد ورفع أنفه المدبب ليتشمم الهواء من جديد .. وقع بعض الضوء المنسرب من النافذة الخلفية على الشعيرات الرمادية النامية فوق جانبي فمه .. التمعت وشقت الهواء في تحد.. أحسست بالغيظ وتساءلت من أى مكان أتى هذا الفأر.. هذه هى المرة الأولى التى ألمح فيها فأرا فى مكتب رئيس الجريدة .. قررت أن أبذل قصارى جهدى فى ايقاعه داخل مصيدة .. وعدت أتساءل .. من أين تأتى المصيدة . لمحته يلعق طرف أقرب دوسيه إلى فمه .. بدت أسنانه الحادة وهو يرفع شفتيه ليقضم طرف الدوسية كمخالب قط .. هذه مصيبة أخرى حلت في الجريدة .. قفزت فجأة من فوق مكتبى دون أن أمنحه فرصه للفرار .. كان أسرع منى .. قفز فوق مكتب رئيسى فى العمل .. بعثر بعض أوراق موضوعه بعناية فائقة على المكتب .. ركبنى غيظ كبير ..قلت لنفسى .. لابد أن أصطاده وإلا ابتلع كل التقارير والأبحاث والموضوعات .. نظر نحوى .. كان فى نظرته عتاب ما .. لعله أدرك ما تحتويه عيناى من كمد دفين .. سأقتلك مهما كلفنى الأمر .. وقلت لنفسى .. لابد أن أتخلص منه فورا قبل حضور رئيسى فى العمل والذى يأتى دائما فى منتصف النهار .. زحفت على ركبتى فى بطء شديد .. حاولت أن ألتف من الخلف لأباغته .. أبصرت

ذيله يتدلى من حافة المكتب.. تراقص الذيل .. استدار برأسه نحوى. لم يتحرك .. أغاظنى عدم اهتمامه بى .. وقلت لعلهافرصة لقتله أو اصطياده .. حين رفعت يدى لأهوى فوق رأسه بدواسة المكتب .. طار فى سرعة وحط على حافة النافذة .. سقطت الشمس على جسده .. هالنى ما فى جسده من سمنة .. أدركت أن هذا الفأر كان موجودا هنا منذ زمن طويل ..أو أنه جاء من الأرشيف ليقبع ضيفا فى مكتب رئيسي فى العمل..وحين هممت بالنهوض رأيت الفأر يفتح فمه .. رمقنى فى حدة ثم أخرج لى لسانه ..انتابنى هلع .. بدأت انكمش وغيرت رأيى عن فكرة اصطياده أوقتله .. هذا فأر مخيف.. قلت لنفسى ربمايخرج من النافذة دون جلبه أو صوت . وتمنيت ذلك بل أنى رحت أغمغم ببعض التمنيات والآيات حتى يزيح الله هذا الفأر من المكتب .. فربما يحضر رئيسى فى العمل فى أية لحظة ..وقلت للفأر: اذهب أرجوك .. لن أصيبك بأذى.. أخرج ..

هالتنى ضحكة تهادت من خلف ظهرى .. كان زميلى فى المكتب .. قلت له :

- ما الذى يضحك ؟

- ماذا تفعل بربك على الأرض ؟

قلت وأنا أحاول أن يكون صوتى خافتا :

- ألا تراه ؟

قال ومازالت ابتسامته متسعة :

- ماذا أرى ؟

- الفأر ..

أشرت إلى النافذة .. صاح وعلامة دهشة كبيرة تشكل قسماته :

- أى فأر ؟

- ذلك..

جلجلت ضحكته من جديد :

- أسكت ستجعله يعودللمكتب ..

عاد الفأر يخرج لسانه .. قال زميلى :

- انهض .. لاتكن أبله .. لايوجد فأر..

فى لمح البصر قفز الفأر .. اختبأ بين الدوسيهات صحت فى هلع :

- ألم تره .. ؟ .. دخل بين الدوسيهات..

قال :

- كيف ترى فأرا لاأراه ؟

قلت فى جزع حقيقى :

- ألم تر الفأر حقا ؟

قال فى حيرة :

- كيف يصل فأر إلى هذا المكان ؟

فكرت قليلا.. قلت :

- حقا كيف يدخل فأر إلى المكتب ؟

هتف مضطربا :

- رتب المكتب حالا ..فانتى أسمع صوت الأستاذ ..

* * * *

وأنا أرتشف كوب الليمون وأرمى بعينى إلى البحر الشاسع .. قال زميلى فى المكتب :

- لماذا تركب رأسك ؟
وضعت الكوب فوق المنضدة برفق .. قلت :
- أنا لا أركب رأسي .. هذه طبيعتي ..
قال في حدة :
- أكتب أى شئ ..
قلت فى حدة أشد :
- لاأستطيع أن أكتب أى شئ..
- أنت تسئ علاقتك بالآخرين. وتغضب رؤساءك ..
- كيف تطلب منى أن أفعل ما لاأستطيعه ؟
- ستخسرالكثير ..
عدت أرتشف عصير الليمون .. وألقى بعينى فى أحضان البحر .. كدت أقذف بكوب الليمون من يدى حين لمحته فوق السور الحجرى للكازينو. تراجعت إلى الخلف .. صحت :
- لقد عاد ..
رأيته يتحسس السور الحجرى .. رفع رأسه ، حدجنى .. ثم أخرج لسانه .. هتفت فى ذعر :
- لقد عاد..
هرولت دون أن أحيى صديقى إلى خارج الكازينو ..

****

قالت زوجتى :
- هل ستسهرالليلة ؟

غمغمت فى قرف :

- سأحاول أن أكتب شيئا..

قالت وهى تدخل حجرة النوم :

- تصبح على خير..

جلست إلى مكتبى.. قلبت بعض الكتب . تصفحت بعضها .. قلت لنفسى : فلتصنع فنجانا من القهوة يعينك على السهر .. كان شئ من الخمول يرخى جسدى .. تراجعت بظهرى إلى الخلف .. استندت إلى القائم الخلفى للمقعد ..فجأة لفت نظرى لون السقف.. كان لونا أصفر باهتا .. كيف لم أر ذلك اللون من قبل.. هذا اللون فظيع .. فكرت فى اعادة طلاء حجرة مكتبى .. سأخبر زوجتى فى الصباح عن رغبتى فى تغيير لون حوائط المكتب .. أعرف أنها تحبذ ذلك رأيت صورة تطل من فوق الحائط المواجه للمكتب .. رجل فى ثياب شديدة الهندمة .. من أتى بهذه اللوحة .. وتساءلت كيف أراها للمرة الأولى .. ربما اشترتها زوجتى اليوم أو أمس ..ولكنها لم تخبرنى .. زوجتى تفعل ما يحلو لها دون الأخذ بمشورتى .. قلت سأقذف بها من النافذة فى الصباح .. أو أضعها فى (السندرة) .. أخرجت بعض الأوراق وأعددت قلمى الرصاص.. اعتدت أن أكتب بالقلم الرصاص حتى أستطيع أن أمحو ما اريد.. لا أحب أن أشطب كلمة لاترضينى.. يقلقنى هذا .. أعددت الممحاة ووضعتها أمام عينى . بسملت ورحت أكتب.. ولكن عينى وقعتا علي الصورة .. رحت أتاملها.. من رسم هذه اللوحة .. لعله أحد فنانى عصر النهضة أو عصر الباروك فى أى عصر تكون سوف ألقيها من النافذة فى الصباح ..

برقت فى ذهنى فكرة .. قلت لماذا لا تقلبها على وجهها مؤقتا.. وجدت صدى طيبا فى نفسى لهذه الفكرة .. نهضت لأقلب الصورة .. حين دنوت منها رأيت رجل الصورة يبتسم .. هل حقا ابتسم .. أم.. لا .. غمز بعينيه فجأة .. أمعقول هذا .. لقد أرهقت نفسك اليوم فى اعداد التقارير والأبحاث لقراءتها من جديد لتكتب موضوعا شيقا عن .. تسمرت مكانى وأنا أحدق فى الصورة غير مصدق.. كانت أذنا رجل الصورة تمتدان .. طالتا حافة البرواز الذهبى.. وبرزت للرجل شوارب طويلة .. وجدته يخرج لسانه لى .. ألتعت .. تراجعت وعدت إلى المكتب. أغمضت عينى ..ماذا أرى ..أكيد أصبت بارهاق شديد اليوم .. هذا صوت قرض لـ .. لفأر .. لم أصدق .. اصغت السمع ..كان الصوت حقيقيا .. من أى مكان يأتى.. حجرتى لا يوجد بها غير المكتب وبعض الأرفف .. من السهل البحث عن ذلك ..لو كان ذلك حقيقة ..سينهش ذلك الفأر مكتبى وأوراقى . بحثت طويلا دون فائدة .. الصوت يتزايد .. لا.. غير معقول ..أحقا. لقد أرهقت نفسك اليوم..لابد أن تخلد إلى النوم .. نعم..

اطفأت نورالمكتب..دخلت حجرة النوم لأستلقى إلى جوار زوجتى..

****

فى زيارة زميلى وزوجته لنا اليوم أعدت زوجتى طبقا من الكيك.. وصنعت شايا باللبن . تعرف زوجتى جيدا أنى أحب الشاى باللبن وهى تحاول أن ترضينى ..

قالت زوجة زميلى :

- ألن تشدا حليكما .. نريد طفلا ..

قالت زوجتى فى استياء:

- اذا شاء الله ..

حول زميلى دفة الحديث قائلا :

- ماذا صنعت فى مقالك ؟

قلت :

- لم أستطع أن أكتب حرفا واحدا ..

قال في قلق :

- لماذا ؟

زممت شفتى قائلا:

- لا أدرى...

قالت زوجتى :

- زوجى هذه الأيام كسول جدا ...

قال زميلى :

- هذا أمر بسيط ألا تستطيع أن تجمع من هنا وهناك؟

قلت فى حدة:

- لا أقتنع بهذه الطريقة المخجلة ..

قال من خلف أذن زوجتى حتى لا يصلها الكلام :

- مازلت كما أنت.. لن تتقدم وتفهم الحياة ...

قالت زوجة زميلى فجأة في فرح طاغ :

- لقد غيرنا عربتنا أمس ..

قالت زوجتى وهى ترنو إلى فى عتاب لأنى لم أستطع أن أشترى لها عربة حتى الآن:

- غير معقول لم تمض عليها أكثر من سنتين ..
قالت زوجة زميلى :
- البركة فى زوجى .. يحب التجديد دائما ..
عادت زوجتى تنظر إلى نفس النظرة التي أراها دائما تهيم على عينيها..

****

كنت في حجرة لا نافذة فيها.. لعلها أحدي حجرات أرشيف الجريدة ..لكنها خالية تماما من أي دوسية أو مكاتب أو أوراق .. ودهشت لذلك .. هل نقلوا الأرشيف إلى مكان اخر .. أم أنني تهت فى أحد مخازن الجريدة .. حاولت أن أعثر على الباب الذي دخلت منه منذ قليل.

فجأة حاولت أن أتذكر لماذا أتيت هنا .. وعن أى شئ أبحث .. نسيت.. تقول زوجتى أننى سريع النسيان وشديد الكسل .. لم تعثر يدى على شئ .. لامنفذ.. هل أغلق أحدهم الباب خلفى .. أعرف مقالب رجال الأرشيف وموظفى المخزن .. طرقت الحائط .. آلمتنى يداى.. وصحت فى الجميع دعونا من هذا الهذر السمج

.. لاصوت.. ما معنى هذا .. رحت بلا وعى أنادى زوجتى علها تنتشلنى من هذا المأزق .. لعله رئيسى فى العمل هو الذى أوقعنى فى هذا الجب.. أعرف أنه لا يحبني .. وأنا لاأحبه .. ولكن ما جدوى ما يصنعه بى.. هل سأحبه .. أيعاقبنى لذلك .. يا سيدى الفاضل افتح الباب أرجوك .. دعنى أخرج وأعدك بأننى سأحبك .. سأحبك بشدة .. لست أنت فقط بل سأحب أباك وأمك وأخوتك أن كان لك أخوة .. وأن أردت أن أحب زوجتك سأفعل ولكن أخرجنى من هنا.. فى لحظة تصاعد فى المكان

ذلك الصوت.. نفس الصوت..ورأسه يدخل من عقب الباب..هنالك الباب رحت أطرقه بشدة .. كان حائطا صلبا ..هاهو ذا يدخل طاعنا الهواء بشواربه الحادة .. لا زال يخرج لى لسانه .. ماذا تريد منى بربك .. اللئيم يعرف أننى لا أحب الفئران فأوقعنى بين مخالب أحدهما.. يا سيدى الفاضل أرجوك .. انقذنى بربك .. انقذنى بكل ماتؤمن به من آلهة .. انقذنى بأية ملة تؤمن بها .. درزيا كنت .. شيعيا .. ولكن لماذا تضعنى فى طريق ذلك الفأر وحدى ..

عاد الفأر وفتح فمه .. أحسست أنه يريد أن يقول شيئا .. قلت له أرجوك أن تدلنى على الباب .. ماذا تريد مني.. أنا لا أريد أن أصيبك بأذى .. ولكنى أراك تريد بى شرا.. راح يدور حولى .. ويعود إلى أحد أركان الحجرة .. يحدجنى بنظراته .. يخرج لسانه .. لمحت شواربه تطول .. تطول .. لا .. كادت تلمس قدمى.. لعلنى قريب منه جدا.. تراجعت إلى الخلف .. هناك شئ ما وراء ظهرى يعوق حركتى.. ماذا يحدث هاهو ذلك الصوت اللعين يعود مرة أخرى.. ولكن الشرير لا يقرض شيئا .. أيوجد أكثرمن فأر فى الحجرة .. أرجوكم أخرجونى من هنا.. دنا الفأر منى.. لاحظت هذه المرة أنه ازداد سمنة .. كان ينمو بسرعة .. بسرعة ماذا يأكل حتى ينمو بهذه الطريقة المخيفة .. تزايد حجمه .. تعالى الصوت يصك أذنى من كل جانب .. لعل ذلك الصوت يأتى من وراء الباب ولكن أين ذلك الباب اللعين..جعلت أطرق الحائط طرقات شديدة .. أحسست بالدماء تنزف من يدى .. والفأر يتزايد ..كاد يبتلع فراغ الحجرة .. احتك جسدى بشعرجلده الأملس فانتابتنى قشعريرة قاتلة .. حاولت التراجع ..

لم أستطع .. تزايد .. تزايد.. مد رأسه الفارغ من فوق رأسى .. عيناه أصبحتا كبلونتين كبيرتين .. يزدادان اتساعا .. اتساعا .. أحسست بالاختناق .. تزايد لهاثى.. سمعت صوت لهاثى يتخلل ذلك الصوت البغيض.. أنى أختنق يا سيدى الفاضل .. أرجوك .. اخر.. جنى ...

* * * *

قالت زوجتى فى الصباح :

- يجب أن تذهب إلى الطبيب .. ألا ترى هيئتك ؟

قلت فى خوف :

- ماذا بى ؟

- لقد زاغت عيناك إلى الداخل ووجهك شديدالصفرة ..

قلت لها فى ضيق :

- لا أحب اللون الأصفر... وعلى فكرة يجب تغيير لون مكتبى...

قالت فى دهشة :

- لماذا؟

- لأن لونه أصفر ..

قالت :

- ليس لون مكتبك فقط ..

قلت :

- وماذا أيضا؟

- حجرة النوم .. المطبخ .. السفرة ..

قلت فى عدم تصديق :

- كلها صفراء..

قالت فى دهشة :

- نعم .. ألم ترها من قبل؟

وضعت يدى على جبهتى .. همست :

- سأذهب إلى الطبيب مساء..

قال الطبيب :

- بماذاتشعر ؟

قلت وأنا لا أدرى ماذا أقول:

- الفأر..

- ماذا ؟

قلت فى ثقة :

- ألم تسمع الفأر.. أنا مريض بالفأر..

ضحك الرجل :

- لم أسمع بهذا المرض ...

قلت:

- هذا مرض جديد .. مرض عصرى .. وربما لم تسمع عنه من قبل..

ضحك الرجل من جديد وقال :

- على كل حال دعنى أكتشف هذا المرض بنفسى..

نمت فوق السرير الجلدى .. عرى صدرى.. أمرنى بأخذ شهيق عميق .. وكتب لى بعض المهدئات

* * * *

بصوت غليظ قال :

- إلى أى مدى قطعت الطريق فى الموضوع الذى كلفتك به ؟

قلت وأنا أبحلق فى وجهه :

- فى البداية ..

قال وقد احتقن وجهه ؟

- ماذا .. أتهذر ؟

قلت :

- أنا لا أهذر .. لم أكتب حرفا واحدا ..

وضع قلمه فى نرفزة فوق المكتب:

- أتقول الحق ؟

قلت وأنا أحس بشئ جديد داخلي.. لعلها من تأثير مهدئات الطبيب:

- كل الحق ..

قال فى صوت عال :

- هذا عقوق وتعطيل للعمل ...

قلت وأنا أستدير:

- هذا الموضوع لا يقنعنى..

قال فى غضب :

- لقد كلفتك به .. وهذا أمر ..

قلت مبحلقا فى وجهه :

- لن أكتب شيئا مما تطلب ..

وأنا أهم بالخروج سمعت الصوت .. نظرت خلفى .. رأيته يأكل الدوسيهات ولمحت رئيسى فى العمل يحمل طبقا فوقه أحد الدوسيهات ودون أن يلتفت إلى خروجى وضع الطبق أمام الفار.. ربت علي شعره الأملس وجذب ذيله فى حنان .. صحت فيه :

- أيها المجرم ...

قال :

- ماذا تقول؟

- أنت الذى تربى هذه الفئران فى الجريدة لتلتهمها ..

- اى فئران ..أنت تهذى ..

قلت فى ثورة :

- رأيتك تربت على ظهره ..

- لقد جننت ..

ضغط على زر المكتب .. جاء الساعى وقال فى حدة :

- أخرجوا هذا فورا ..

صحت :

- يا مربى الفئران يا قذر..

وقذفوا بى إلى الخارج ..

* * * *

فى الصباح .. أحسست بالاسترخاء،وأن جسدى لين كقطعة قطن طبى .. حاولت النهوض .. قالت زوجتى وهى تفتح عينيها :

- كيف حالك ؟

- بخير..

نهضت عن الفراش .. حاولت أن أتثاءب لأشعر بتلك اللذة التى كنت أحسها عند التثاوب .. لم أستطع .. قلت لنفسى لن يفلح فى تنشيطى سوى دش ماء بارد .. خلعت ثيابى فى الحمام ..بحثت عن اللوفة .. عثرت عليها فى صعوبة ورحت أدلك جسدى تحت دفق الماء.. أحسست بالنشاط يدب إلى جسدى .. حمدت الله ..لم أعرف كيف واتتنى القدرة

على أن أصدر صفيرا منغما ..أتانى صوت زوجتى من الخارج؟

– الماء بارد..

قلت :

– للذيل ..

عاودت الصفير.. بل أطلقت لنفسى الحرية قليلا ورحت أهز جسدى على نغمات الصفير .. شعرت بالتحسن وقلت لنفسى هذاصباح جميل .. رحت أجفف جسدى وحين امتدت يدى إلى الخلف لأجفف مؤخرتى أحسست بشئ غريب شئ مدبب .. يخرج من مؤخرتى من أسفل عمودى الفقرى .. صرخت : ما هذا ؟ .. هل أصبت بورم خبيث .. رحت أتحس مؤخرتى .. وجدت ذلك الشئ يطول ويمتد .. سرت يدى مع امتداد ذلك الشئ .. التعت .. قفزت إلى مرآة الحمام المائلة قليلا عن الحائط.. استطعت أن أبصر مؤخرتى .. ما هذا ؟ غير معقول.. رحت أتحسس الذيل فى جنون .. لقد نما لى ذيل.. كيف ..ومتى .. جذبته بشدة عسى أن ينخلع فى يدى.. كان قويا .. ومتمسكا بمؤخرتى فى قوة .. حاولت أن أصرخ .. توقفت الصرخات فى حلقى .. أتريد أن تفضح نفسك .. ستعرف زوجتك بذلك الأمر .. ياله من أمر.. من يصدق أن ذيلا نما فى موخرتى.. وقفت ألتقط أنفاسى... وأفكر فى هذا الطارئ الغريب..كيف أتخلص منه .. وهل يمكننى التخلص منه ..فكر فى الأمر بهدوء ولا تتعجل .. كن يقظا وحذرا .. هاأنتذا فى وضع غريب .. لن يطيب لأحد أن يراك بهذا الذيل حتى زوجتك .. عاوده التياعه .. كيف تداريه حين يشدك الحنين اليها .. ماذا يكون موقفك اذا رأت ذلك الشئ .. يجب أن تحذر .. على الأقل لتفكر

فى الأمر وتجد حلا مناسبا.. سأذهب إلى الطبيب ليبتره .. سأرشوه ليتكتم السـر..ليس أمامك من سبيل الا أن ترشـوه ..هذه هـى الطريقـة المـثلى لاحتفاظه بالسر داخل صدره .. سيصونه .. ولكن أى طبيب..

- تأخرت كثيرا ..ماذا تفعل ؟

انتبه .. قال:

- سأخرج حالا..

ارتدى ثيابه بسرعة .. حاول أن يخفى الذيل بين فخديه .. تألم لانثنائه .. فرده .. بدل من طريقة سيره حتى لا تلحظه زوجته .. قالت:

- الشاى باللبن جاهز ..

قال :

- تأخرت .. سأذهب إلى الجريدة ..

انتهز فرصة دخولها الحمام وارتدى ثياب الخروج ..

وهى بالداخل قال :

- تأخرت .. سأنزل ..

- قبل أن تشرب الشاى باللبن ؟

قال :

- رئيسى فى العمل سيحضر مبكرا ..

فى الطريق قال لنفسه :

- يجب أن أتخلص منه ..

وأخذ ينظرإلى الناس ويتمنى من الله ألا ينتبه أحد اليه .. بينما راح يتلفت فى قلق صوب كل اتجاه...

الفهرس

المؤلــف

سعــــيد بكــــر

- كاتب قصة وروائي .

- حاصل على العديد من جوائز القصة والرواية آخرها جائزة الدولة التشجيعية في الرواية "الفيافي" عام ١٩٩٣ م

صدر له :

١- البدء والأطراش	رواية	١٩٨٠	مطبعة الوادي
٢- عويل البحر	قصص	١٩٨٣	المجلس الأعلى للثقافة
٣- الصعود على جدار أملس	قصص	١٩٨٦	الهيئة العامة للكتاب
٤- هزيمة فرس أبيض	قصص	١٩٩٠	وزارة الثقافة - مواهب
٥- وكالة الليمون	قصص	١٩٩٠	الهيئة العامة للكتاب
٦- الفيافي	رواية	١٩٩٠	اقليم غرب الدلتا الثقافي
٧- السكة الجديدة	رواية	١٩٩٤	الهيئة العامة للكتاب
٨- الشمس لاتدخل القبو	قصص	١٩٩٥	هيئة قصور الثقافة
٩- شهقة	قصص	١٩٩٨	مركز الحضارة العربية

تحت الطبع :

متواليات باب ستة	رواية	دار مطابع المستقبل
تحت السور	رواية	الهيئة العامة للكتاب
الباب الأخضر	رواية	

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

روايات ..

إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوليوس ترجمة د.علي فهمي خشيم
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
الخروج إلى النبع	محمد قطب
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني

قصص قصيرة ..

مطرية الغروب	جمال الغيطاني
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
حرب بلاد تجنم	خيرى عبدالجواد
حكايات الديب رماح	خيرى عبدالجواد
حرب أطاليا	خيرى عبدالجواد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
شجرة الخلد	سعد القرس
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
فرد حمام	يوسف فاخورى
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوه
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين

شعر ..

سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
قصائد حب من العراق	البياتى وآخرون
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
دنيــــا تناديـنـا	طارق الزياد
صلاة المودع	صبرى السيد
من فصول الزمن الردىء	درويش الأسيوطى
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدى رياض

عطر النغم الأخضر	عمر غراب
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد
فى مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد
إذهب قبل أن أبكى	د. لطيفة صالح

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقى الدجانى
اللعبة الأبدية ... (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة القرود	محمود عبد الحافظ

دراسات ..

آلهة مصر العربية	د . على فهمى خشيم
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
خبيات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
فى الرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
زمن الرواية : صمت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د . أحمد الصاوى
رمضان .. زمان	د . أحمد الصاوى
القصص الشعبى فى مصر	إعداد خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	
الفاشوش فى حكم قراقوش	
الحكمة المدنية لابن المقفع	

فنون ..

ماهى السينما	صلاح أبو سيف
قضايا المونتاج المعاصر	د . عفت عبد العزيز
الصوت والضوضاء	د . مصطفى عبد المطلب

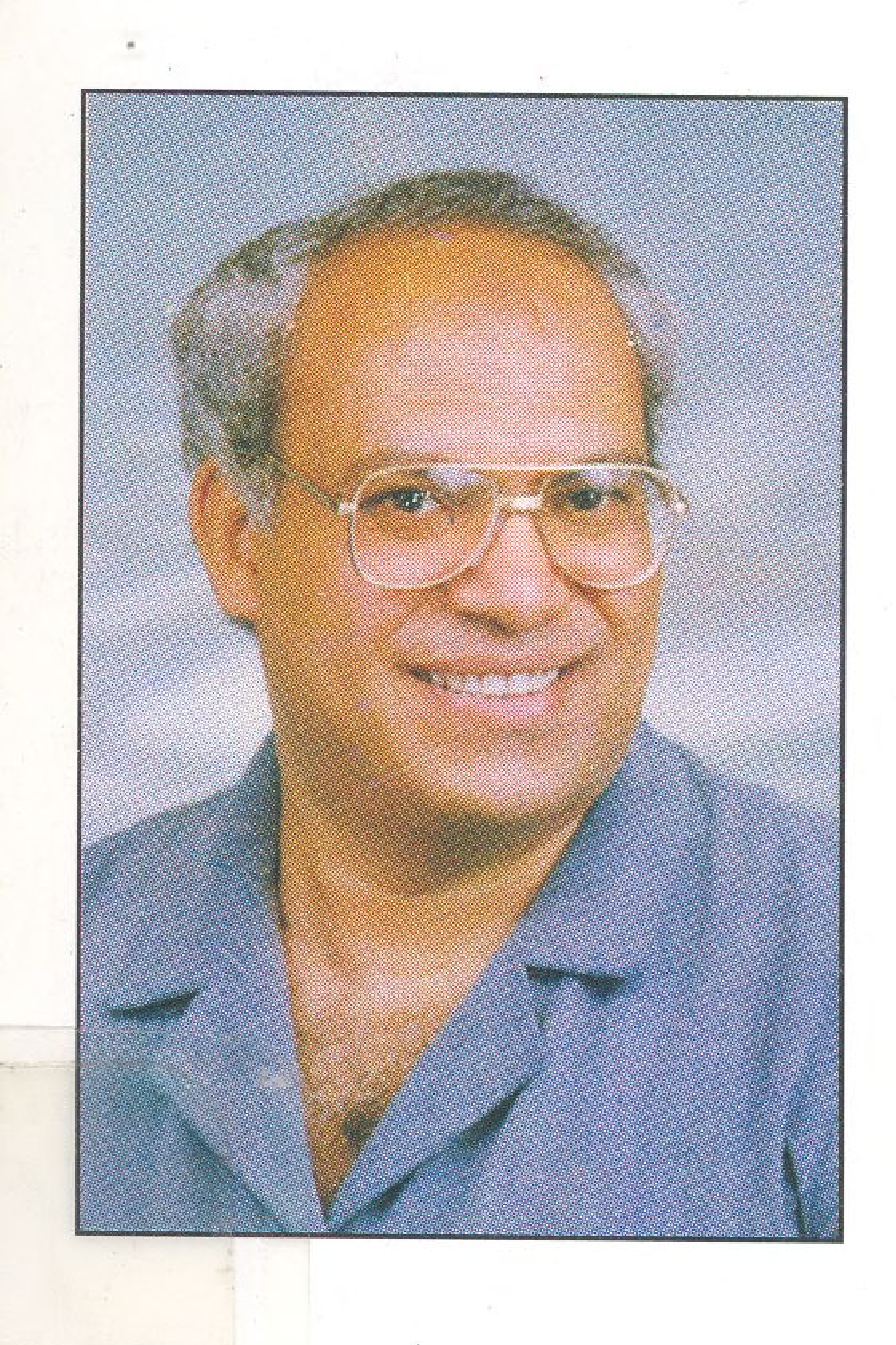
بالإضافة إلى :

كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.



٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨



شهقة

رأيت نفسى عاريا تماما كما ولدتنى أمى.. وكنت فى الغرفة وحدى.. راقد فوق لوح خشبى تحت النافذة الحديدية .. ورأيت فى السقف مصباحا متدليا يتأرجح يمينا ويسارا . بحثت عن الرجل ذى العينين الزجاجيتين بعينى .. لم يكن له وجود داخل الغرفة .. وكانت تلك الرائحة المميزة تفوح من مكان لا أدرى موضعه .. وهناك ثمة دخان يلتصق بالسقف وكأنه قطع من السحب تهيم فى السماء.. حاولت أن أصرخ ولكن صرختى ضاعت فى فمى .. قلت لنفسى لماذا تنام عاريا هكذا .. فكرت فى النهوض .. جسدى كان خاويا كقطعة قطن مندوف .. كنت يقظا تماما .. ناديت الرجل فدوى صوتى فى فراغ الغرفة رنوت إلى الباب ..كان مغلقا .. شعرت بأننى فى مأزق حقيقى .. ماذا حدث لى بالضبط .. تذكرت أننى كنت أبحث عن مثواها الأخير .. ولكن ما الذى جاءبى إلى هنا .. لم يطل بى تفكيرى إذ انفتح الباب ودخلت امرأة بدينة..لم استبن ملامحها تماما.. وقفت عند قدمى .. لم تخجل من عريى ..ولم أخجل أنا .. بل ظللت متوسدا اللوح الخشبى ..

